

مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين. وبعد:

فإن آثار الهداة المهديين الذين رسموا الطريق عن خبرة، ودعوا إليه على بصيرة، كثيرة. ومن أنفَسَها كتاب «لطائف المنن». ألفه الإمام الجليل ابن عطاء الله السكندري، الذي جمع بين رئاسة علوم الشريعة وعلماؤها الشريعة ورئاسة علوم الحقيقة وعلماؤها الحقيقة فكان متشرعاً متحققاً، بل رأس علماء التشريع وعلماؤها التحقيق.

ويقول الإمام أحمد زروق رضى الله عنه:

هو الشيخ الإمام العالم العامل العارف بالله المحقق الكامل أبو الفضل تاج الدين وترجمان العارفين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله، الجذامي نسباً، المالكي مذهباً، الإسكندري داراً، القاهري مزاراً. توفي بالقاهرة سنة سبع مائة وتسع في جمادى الآخرة، وكان أعجوبة زمانه في التصوّف وغيره كما قيل:

حلف الزمان ليأتين بمثله حنثت يمينك يا زمان فكفر

ويذكر الشيخ زروق من تأليفه:

«التنوير في إسقاط التدبير» و«لطائف المنن» و«تاج العروس» و«مفتاح الفلاح» و«القول المجرد في الاسم المفرد».

أخذ العهد على الإمام الكبير أبي العباس المرسى، الذي قال عنه القطب الشاذلي: «إنه أعلم بطرق السماء منه بطرق الأرض».

وقال فيه:

هذا أبو العباس منذ أن عرف الله لم يحجب عنه، ولو طلب الحجاب لم يجده!!
ويقصُّ ابن عطاء الله في كتابه اللطيف الشائق: «لطائف المنن»، قصّة صلته بأبي العباس فيقول:

«كنت لأمرّه (أى لأمر الشيخ أبي العباس) من المنكرين وعليه من المعترضين، لا لشيء سمعته منه ولا لشيء صحّ نقله عنه، ولكن جرت الخاصمة بيني وبين أصحابه فقلت فيهم قولاً عظيماً، ثم قلت في نفسي: دعني أذهب أنظر هذا الرجل، فصاحب الحق له أمارات. لا يخفى شأنه، فأتيت إلى مجلسه فوجدته يتكلم في الأنفاس، ومسألة درجات السالكين إلى الله، ومدى معرفتهم به، وقرهم منه فقال:

الأول إسلام: وهو درجة الانقياد والطاعة والقيام ببراسم الشريعة.

وثانيها الإيمان: وهو مقام معرفة حقيقة الشرع بمعرفة لوازم العبودية.

وثالثها الإحسان: وهو مقام شهود الحق تعالى في القلب.

وإن شئت قلت: الأول عبادة، والثاني عبودية، والثالث عبودة.

وإن شئت قلت: الأول شريعة، والثاني حقيقة، والثالث تحقق.

فما زال يقول: وإن شئت قلت، وإن شئت قلت، إلى أن بهر عقلي وسلب لبي، فعلمت أن الرجل يغترف من فيض بحر إلهي ومدد رباني: فأذهب الله ما كان عندي، ثم أتيت تلك الليلة إلى المنزل فلم أجد في شيئاً يقبل الاجتماع بالأهل على عادتي، ووجدت معني غريباً لا أدري ما هو، فانفردت في مكان أنظر إلى السماء وكواكبها، وما خلق الله فيها من عجائب قدرته، فلمس قلبي أشياء لم أعرفها من قبل، فحملني ذلك على العودة إليه مرة أخرى فأتيت إليه، فاستؤذن لي عليه، فلما دخلت إليه قام قائماً وتلقاني ببشاشة وإقبال حتى دهشت خجلاً، واستصغرت نفسي أن أكون أهلاً لذلك، فكان أول ما قلت له: يا سيدي أنا والله أحببك. فقال: أحبك الله كما أحببتني، ثم شكوت له ما أجده من هموم وأحزان، فقال:

أحوال العبد أربع لا خامسة لها: النعمة والبلية، والطاعة، والمعصية، فإن كنت في النعمة فمقتضى الحق منك الشكر. وإن كنت في البلية فمقتضى الحق منك الصبر، وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود منته عليك، وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار، فقامت من عنده وكأنما كانت الهموم ثوباً نزعته، ثم سألتني بعد ذلك بمدة، كيف حالك؟ فقلت: أفتش عن الهم فما أجده، فقال:

ليلى بوجهك مشرق وظلامه في الناس سارى
والناس في سُدَف الظلا م ونحن في ضوء النهار

الزم، فوالله لئن لزمتم لتكونن مفتياً في المذهبين؛ في علوم الظاهر وحقائق الباطن.

وعن هذه الملازمة يروى ابن عطاء الله القصة التالية، قال:

خرجت يوماً من عند الفقيه مكين الدين الأسمر رضى الله عنه، وخرج معي أبو الحسن الجزيري، وكان من أصحاب الشيخ أبي الحسن، فسلمت عليه، فسلم عليّ ببشاشة وإقبال، فقلت له: من أين تعرفني؟

فقال: كيف لا أعرفك؟ كنت يوماً جالساً عند الشيخ أبي العباس وكنت أنت عنده، فلما نزلت قلت له: يا سيدي إنه يعجبني هذا الشاب انقطع فلان وفلان عن الملازمة وهذا الشاب ملازم، قال: فقال الشيخ: يا أبا الحسن، لن يموت هذا الشاب حتى يكون داعياً يدعو إلى الله فكان كما قال الشيخ والله الحمد.

أخذ ابن عطاء الله العهد على أبي العباس، ولأزمه، وكانت بينه وبينه أمور توضّح شيئاً من صلتها وتلقى بعض الأضواء على سيرته، منها مثلاً ما يدل على أن جدّ ابن عطاء الله كان فقيهاً معارضاً للنزعة الصوفية.

جاء في لطائف المنن: وأخبرني بعض أصحابه قال: قال الشيخ (أبو العباس) يوماً: «إذا جاء ابن عطاء الله فقيه الإسكندرية فأعلموني به، فلما أتيت أعلمنا الشيخ بك، فقال: تقدم، فتقدمت بين يديه، ثم قال:

جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ ومعه ملك الجبال حين كذبت قريش، فقال له جبريل (عليه السلام): هذا ملك الجبال أمره الله أن يطيع أمرك في قريش، فسلم عليه ملك الجبال، وقال: يا محمد إن شئت أطبق عليهم الأخشبين ففعلت، فقال رسول الله ﷺ: لا ولكن أرجو أن يخرج من أصلابهم من يوحد الله ولا يشرك به شيئاً.

فصبر عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء من يخرج من أصلابهم، كذلك صبرنا على جد هذا الفقيه لأجل هذا الفقيه» اهـ.

ولكن الأمور، في الاطمئنان إلى المسلك الصوفي، لم تكن تسير، في كل ظروفها رخاء: فإن ابن عطاء الله كان طالباً محباً للعلم مشغوفاً بقراءة الكتب، وبينما هو مندمج في الجو الطلّابي إذا بالطلبة يتحدثون عن العلم الظاهر والتصوف، ويروي هو القصة كما يلي:

وكنت أنا سمعت الطلبة يقولون: من يصحب المشايخ لا يجيء منه في العلم الظاهر شيء، فشقّ عليّ أن يفوتني العلم، وشقّ عليّ أن تفوتني صحبة الشيخ رضي الله عنه، فأتيت إلى الشيخ فوجدته يأكل لحماً بخل، فقلت في نفسي: ليت الشيخ يطعمني لقمة من يده، فما استتمت الخاطر إلا وقد دفع في فمي لقمة في يده، ثم قال: نحن إذا صَحَبْنَا تاجرٌ ما نقول له: اترك تجارتك وتعال، أو صاحب صنعة ما نقول له: اترك صنعتك وتعال، أو طالب علم ما نقول له: اترك طلبك وتعال، ولكن نفرّ كل أحد فيما أقامه الله فيه. وما قسم له على أيدينا فهو واصل إليه. وقد صحب الصحابة رسول الله ﷺ، فما قال لتاجر: اترك تجارتك، ولا لذى صنعة اترك صنعتك، بل أفرّهم على أسبابهم، وأمرهم بتقوى الله فيها.

ولكن يبدو أن ابن عطاء الله حينما اندمج في جو الأستاذ ولازمه حاول محاولة ردّه الأستاذ عنها، يقول ابن عطاء الله:

ودخلت أنا عليه يوماً وفي نفسي ترك الأسباب، والتجريد، وترك الاشتغال بالعلم الظاهر، قائلاً: إن الوصول إلى الله لا يكون إلا على هذه الحالة، فقال من غير أن أبدى له شيئاً:

صحبني بقوص إنسان يقال له: ابن ناشيء وكان مدرساً بها ونائب الحاكم، فذاق من هذا الطريق شيئاً على أيدينا. فقال: يا سيدي أترك ما أنا فيه وأتفرغ لصحبتك؟ فقلت له: ليس الشأن ذا، ولكن امكث فيما أقامك الله فيه، وما قسم لك على أيدينا هو لك واصل. ثم قال: وهذا شأن الصديقين لا يخرجون من شيء حتى يكون الحق سبحانه هو الذي يتولّى إخراجهم. فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبي وكأنما كانت ثوباً نزعته ورضيت عن الله فيما أقامني فيه.

ولقد قدر الإمام أبو العباس تلميذه النابه، وتبني قيادته إلى المكانة الجدير بها، ويشير إلى ذلك

القصتان التاليتان، يقول ابن عطاء الله :

«وكنيت قلت لبعض أصحاب الشيخ: أريد لو نظر إلى الشيخ بعناية، وجعلني في خاطره، فقال ذلك للشيخ، فلما دخلت على الشيخ رضى الله عنه قال:

لا تطالبوا الشيخ بأن تكونوا في خاطره، بل طالبوا أنفسكم أن يكون الشيخ في خاطركم، فعلى مقدار ما يكون الشيخ عندكم تكونون عنده.

ثم قال: أى شيء تريد أن تكون؟ والله ليكونن لك شأن، والله ليكونن لك شأن عظيم، والله ليكونن لك كذا، والله ليكونن لك كذا، لم أثبت منه إلا قوله: ليكونن لك شأن عظيم، فكان من فضل الله سبحانه ما لا ننكره».

ويقول: وأخبرني سيدى جمال الدين، ولد الشيخ، قال: قلت للشيخ: هم يريدون أن يصدروا ابن عطاء الله في الفقه، فقال الشيخ:

هم يصدرونه في الفقه، وأنا أصدره في التصوف. ودخلت أنا عليه فقال لى:

إذا عوفى الفقيه ناصر الدين يجلسك في موضع جدك، ويجلس الفقيه من ناحية، وأنا من ناحية، وتتكلم إن شاء الله في العلمين، فكان ما أخبر به رضى الله عنه.

وابن عطاء الله هو الذى كان له الفضل الكبير في بيان كثير مما يعرفه الآن من آثار أبى العباس المرسى.

وفي بيان الكثير أيضاً مما نعرفه عن القطب الكبير الحجة أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه. وابن عطاء الله هو الذى جند قلمه للدعوة إلى طريق الله فكتب هذه الدرر التى تركها مصابيح وأنجماً تهدى السائرين إلى الله تعالى.

والكتاب الذى نقدمه الآن كتاب مبارك، إذ إنه يتحدث عن شخصيتين هما في القمة من السموّ الروحى: إنه يتحدث عن الإمام الكبير أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه، وعن الإمام الكبير أبى العباس المرسى رضى الله عنه.

وما كان الوصول إلى القمة في السموّ الروحى - في يوم من الأيام - سهلاً ميسوراً. كلاً. وإغنا له ثمنه الباهظ من مجاهدة النفس، ومن قيام الليل، وصيام النهار، والعمل في كل لحظة لمرضاة الله سبحانه.

ولقد كافح كل منها في سبيل الله طيلة حياته.

أما أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه فقد بدأ حياته بأمرين لا بدّ منها لكل من يريد سلوك طريق الله وهما:

١ - العلم.

٢ - العبادة.

أما العلم فلائه لابد من التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلا لما أفلح السالك بعد.
والتأسي برسول الله ﷺ لابد له من دراسة السنة دراسة متمعة.
ودراسة السيرة النبوية دراسة متأملة.

ورسول الله ﷺ كان شعاره، وكان طابعه، وكان أساسه، وكانت وجهته: كتاب الله سبحانه. ومن
هنا كان لابد للقرب من الله تعالى، من اتخاذا القرآن شعاراً وطابعاً وأساساً ووجهة.
وقد درس كل ذلك أبو الحسن الشاذلي أحسن وأجل ما تكون الدراسة فكان عالماً قمّة في
العلم.

وكانت له كتب مفضلة يداوم على دراستها لتلاميذه ومريديه ومن هذه الكتب:

١ - كتاب «إحياء علوم الدين» وهو كتاب ألفه الإمام الغزالي في فترة خلوته وفي أيام عبادته
وقربه من الله تعالى. إنه ثمرة من ثمار القرب، وهو من خير ما يتخذ الإنسان من الذخائر. ويقول
عنه الإمام النووي:

«كاد الإحياء يكون قرآناً».

وذلك أنه يستمد من القرآن. والإمام النووي حجة في السنة وحجة في الفقه وكلمته لها وزنها
الكبير. كان أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه يقرأ هذا الكتاب ويدرسه لتلاميذه.

٢ - كتاب «قوت القلوب» لأبي طالب المكي وهو كتاب ينص الإمام الغزالي على أنه من
الكتب التي قرأها وهو بصدد السلوك الصوفي، ويقول عنه أبو الحسن: القوت: قوت.
ويقول عنه: القوت يفيد النور، كان أبو الحسن يقرؤه ويُدْرُسُه.

٣ - كتاب «الرسالة القشيرية» وهو الكتاب الذي يعتبر دستور الصوفية، وقد ألفه الإمام
القشيري: لا لهدف المعرفة فحسب، وإنما ليكون ميزاناً للصوفية ومقياساً لأعمالهم ويقول في ذلك:
«^(١) ثم اعلّموا رجبكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم، ولم يبق في زماننا هذا
من هذه الطائفة إلا أثرهم كما قيل:

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نساها

حصلت الفترة^(٢) في هذه الطريقة. لا بل اندرست^(٣) الطريقة بالحقيقة. مضى الشيوخ الذين
كان بهم الاقتداء، وقلّ الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وستهم اقتداء، وزال الورع وطوى بساطه.
واشتد الطمع وقوى رباطه.

وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة، فعُدوا قلة المبالاة بالدين وأوثق ذريعة. ورفضت التمييز بين
الحلال والحرام، ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام، واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا

(١) ص ٢٧ من الرسالة القشيرية.

(٣) اندرست: زالت وبقيت.

(٢) الفترة: التراخي والتفريط.

بالصوم والصلاة، وركضوا في ميدان الغفلات، وركنوا إلى اتباع الشهوات وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات، والارتفاق^(٤) بما يأخذونه من السوق والنسوان وأصحاب السلطان.

ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، وأدعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال، وتحققوا بحقائق الوصال، وأنهم قائمون بالحق، تجري عليهم أحكامهم، وهم محو وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم، وأنهم كُوشفوا بأسرار الأحدية، واختطفوا عنهم بالكلية وزالت عنهم أحكام البشرية، وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصمدية، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا، والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا بل صُرفوا..

ولما طال الابتلاء فيما نحن فيه من الزمان بما لوحت ببعضه من هذه القصة وكنت لا أبسط إلى هذه الغاية لسان الإنكار، غيراً على هذه الطريقة أن يذكر أهلها بسوء، أو يجد مخالف لثليهم مساعاً: إذ البلوى في هذه الديار بالمخالفين لهذه الطريقة والمنكرين عليها شديدة.

ولما كنت أؤمل من مادة هذه الفترة أن تنحسّم ولعل الله سبحانه يجود بلطفه في التنبيه لمن حاد عن السنة المثلى في تضييع آداب هذه الطريقة.

ولما أبى الوقت إلا استصعاباً، وأبى أكثر أهل العصر بهذه الديار إلا تمادياً فيها اعتادوه واغتراراً بما ارتادوه..

أشفقت على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر - على هذه الجملة^(٥) - بنى قواعده وعلى هذا النحو سار سلفه:

فعلقت هذه الرسالة إليكم، أكرمكم الله. وذكرت فيها بعض سير شيوخ هذه الطريقة في آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم بقلوبهم، وما أشاروا إليه من مواجيدهم، وكيفية ترقّيه من بدايتهم إلى نهايتهم، لتكون لمريدي هذه الطريقة قوة، ومنكم لي بتصحيحها شهادة، ولي في نشر هذه الشكوى سلوة، ومن الله الكريم فضلاً ومثوبة. وأستعين بالله سبحانه فيما أذكره وأستكفيه، وأستعصمه من الخطأ فيه، وأستغفره وأستغفيه^(٦)، وهو بالفضل جدير وعلى ما يشاء قدير» ا.هـ. وهذه الرسالة كتاب موفق كل التوفيق، قسّمه مؤلفه إلى أربعة أقسام معرفتها ضرورية لكل سالك.

القسم الأول: قسم العقائد، ذكر فيه للمؤلف عقائد الصوفية من أقوالهم وبين بما لا لبس فيه أنها هي نفس عقائد أهل السنة.

والقسم الثاني: ذكر فيه تراجم كبيرة من أعلام التصوف حتى يكونوا مثلاً يحتذونها الساترون إلى الله.

والقسم الثالث: تحدث فيه عن مصطلحات الصوفية، وللتصوف مصطلحاته الخاصة به كما أن لكل فن مصطلحاته. والواقع أن عدم فهم بعض الناس لمصطلحات الصوفية هو الذي يوقعهم في

(٦) أطلب الغفر ردة عن الخطأ.

(٤) الانتفاع.

(٥) جملة مزاعمهم وادعاءاتهم.

عدم فهم التصوف، ولو فهمت هذه المصطلحات من أمثال: الزهد والتوكل والفناء والحقيقة والشرعة وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين.. إلخ. أقول: لو فهمت هذه المصطلحات ونحوها على حقيقتها لما كان هناك سوء فهم للتصوف، وهذا القسم من أهم الأقسام.

أما القسم الرابع: فإنه في بيان المقامات التي يتدرج الإنسان فيها من مقام روحى إلى مقام أسمى حتى يصل إلى أسمى المقامات الروحية.

ثم يكون الحديث عن الشيخ وسماته وعن المريد وآدابه.

كان أبو الحسن يقرأ هذا الكتاب ويدرسه.

وهذا الكتاب هو الذى كان يقرؤه مع كبار العلماء في أثناء الليالي التي دارت فيها معركة المنصورة الشهيرة. وذلك حينما كانوا يفرغون من أمور الجيش والحرب، ويأوون إلى خيمة من خيام الجيش: يصلون ويدعون ويتهللون إلى الله داعين بالنصر، ثم يتحدثون في العلم ويقرءون الرسالة القشيرية.

٤ - وكان أبو الحسن رضى الله عنه يقرأ لتلاميذه كتاب «الشفاء» للقاضى عياض في السيرة النبوية وهو من أحسن ما كتب فيها.

٥ - وكان يدرس لمريديه كتاب «ختم الأولياء» وهو من الكتب التي أثارت ثورة في الفكر الإسلامى وفي الجو الروحى وقد طبع في لبنان للمرة الثانية.

٦ - أما في التفسير فكان الإمام يدرس لمريديه كتاب «المحرر الوجيز» وهو كتاب أقر بفضل، القدماء والمتأخرون، وقد أعد للطبع من عدة جهات، ونرجو الله سبحانه أن يُيسر طبعه.

٧ - وكان الشيخ رضى الله عنه يدرس للمتعمقين المتخصصين كتاب «المواقف» وهو من الكتب التي تحتاج إلى استعداد خاص.

وكان يدرس غير ذلك، وما أردنا الاستقصاء وإنما أردنا أن نبين أن التصوف الصادق يُعنى بالجانب العلمى عناية كريمة، ويعنى بصفوة من الكتب التي تسير على النسق السلفى الكريم. ولقد سار أبو العباس على نسق أستاذه، وكانت هذه الكتب وغيرها مما يدرس لمريديه يقول ابن عطاء الله:

وكان كتابه في أصول الدين: «الإرشاد».

وفي الحديث كتاب «المصاييح».

وفي الفقه كتاب «التهذيب» و«الرسالة».

وفي التفسير كتاب «ابن عطية».

أما فيما يتعلق بالصلة التي بين أبي الحسن وأبي العباس رضى الله عنها فتصورها خير تصوير الرؤيا الآتية:

يقول ابن عطاء الله: أخبرنى بعض أصحابنا قال:

رأى إنسان من أهل العلم والخير كأنه بالقرافة الصغرى، والناس مجتمعون يتطلعون إلى السماء، وقائل يقول: الشيخ أبو الحسن الشاذلى ينزل من السماء والشيخ أبو العباس مرتقب لنزوله متأهب له، فرأيت الشيخ أبا الحسن قد نزل من السماء وعليه ثياب بيض، فلما رآه الشيخ أبو العباس ثبتت رجله في الأرض وتهدأ لنزوله عليه، فنزل الشيخ أبو الحسن عليه ودخل من رأسه حتى غاب فيه.. واستيقظت.

في هذه الرؤيا أمور:

- ١ - أبو الحسن ينزل من السماء.
 - ٢ - عليه ثياب بيض.
 - ٣ - أبو العباس يتهدأ لاستقباله، ويثبت رجله في الأرض.
 - ٤ - يدخل أبو الحسن من رأسه ويغيب فيه.
- ومعنى الرؤيا أن أبا الحسن وأبا العباس امتزجا حتى أصبحا كائناً واحداً أى أن أبا العباس استمرار لأبى الحسن.

وهذه رؤيا معبرة كل التعبير عن الواقع. وكل ما يقال عن أبى الحسن من آراء يمكنك أن تقول في يقين: إن أبا العباس لا يخالفه والعكس صادق. عن هذين الإمامين كان كتاب لطائف المنن.

وعهدى بكتاب «لطائف المنن» عهد قديم: فقد قرأته قراءةً متأنية حينما شرعت في الإعداد للكتابة عن الإمام أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه، ثم قرأته مرةً ثانية حينما شرعت في الإعداد للكتابة عن الإمام أبى العباس المرسى، رضى الله عنه ورجعت إليه أكثر من مرة بعد ذلك لظروف ومناسبات عدة منها مثلاً: حينما كتبت كلمات عن الإمام المؤلف للكتاب: ابن عطاء الله السكندرى (رضى الله عنه) عند نشر شرح الحكم للإمام ابن عباد، وعند نشر شرح الحكم للإمام أحمد زروق. وفي كل مرة قرأته أو رجعت إليه كنت أتمنى لو خرج هذا الكتاب إلى الناس في طبعة ميسرة: تحقيقاً وتعليقاً.

والأمور مرهونة بأوقاتها ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾.

وتقضى السنون والكتاب دائماً في متناول يدي أقلب صفحاته الفنية بعد الفينة، ثم أضعه في مكانه حتى شاء الله سبحانه أن يكون ظهور الكتاب عند افتتاح مسجد ابن عطاء الله السكندرى. لقد كان ضريح ابن عطاء الله السكندرى على صورة لا تتناسب مع مكانته، وكان الزائر له لا يكاد يهتدى إلى مكانه، واستمر ذلك قروناً إلى أن وجه الله سبحانه الرجل الصالح عبد الحليم مجاهد - الذى يحيط به الخير أينما سار، ويفيض عنه سهلاً ميسراً - إلى بناء مسجد يتناسب ومكانة ابن عطاء الله السكندرى، وبنى المسجد مباركاً مشرقاً، وأثلج ذلك صدور الصالحين عموماً والشاذلية

خصوصاً، فجزى الله الأخ عبد الحلیم مجاهد خير الجزاء، وأثابه على ما قدّم أجزل الثواب، ووفقه الله دائماً لصالح الأعمال.

وإننا حين نقدم هذا الكتاب فإنما نقدم كتاباً من النوع النفيس الذى يقرؤه القارىء فينعم بأسلوب جميل، ويستفيد علماً نافعاً، وهكذا كتب ابن عطاء الله السكندرى: إنها فى أساليبها تتسم بالفصاحة، وفى معانيها تتسم بالنفاسة، وهى بأسلوبها ومعانيها تنبثق عنها روحانيّة هى سمة مؤلفات أولياء الله، وإذا كان أولياء الله هم الذين إذا رُؤوا ذكر الله: فإن مؤلفاتهم حينما تقرأ فإنها تهدى إلى الله وتقود إليه سبحانه، ولقد قال أبو الحسن الشاذلى رضوان الله عليه: كتاب الإحياء يفيد العلم، وكتاب قوت القلوب يفيد النور، وكلاهما يفيدان العلم والنور، وكذلك الأمر فى كتب ابن عطاء الله: إنها تفيد العلم والنور، وتفيد لذة تذوق الأسلوب الجميل. وإذا كان أسلوب ابن عطاء الله قد بلغ القمة فى كتابه الحكيم حتى ليقول الشيخ محمد عبده:

«كاد كتاب الحكم يكون قرأناً».

فإن أسلوبه فى بقية كتبه هو من الأساليب الممتازة فى البلاغة: كلامه جواهر، وجواهره لآلى ولآلته ماس، وماسه من النوع النادر.

ولقد بلغ ابن عطاء الله القمة: أسلوباً ومعنىً فى مناجاته التى يقرؤها الصالحون قبيل الفجر فيجدون ثمرتها إشراقاً فى صدورهم ونوراً فى قلوبهم.

ولا يفوتنا ونحن بصدد الكتابة عن ابن عطاء الله أن نتّوجّ كلمتنا عنه بهذه المناجاة الممتعة الرائعة:

مناجاة

إلهى أنا الفقير فى غناى فكيف لا أكون فقيراً فى فقرى؟
إلهى أنا الجهول فى علمى فكيف لا أكون جهولاً فى جهلى؟
إلهى إن اختلاف تدبيرك، وسرعة حلول مقاديرك: معنا عبادك العارفين بك عن السكون إلى عطاء والياس منك فى بلاء.

إلهى منى ما يلىق بلؤمى ومنك ما يلىق بكرمك.
إلهى وصفت نفسك اللطف والرافة فى قبل وجود ضعفى أفتمنعنى منها بعد وجود ضعفى؟
إلهى إن ظهرت المحاسن منى فبفضلك ولك المنة علىّ، وإن ظهرت المساوئ منى فبعدلك ولك الحجة علىّ.

إلهى كيف تكلى إلى نفسى وقد توكلت فى؟ وكيف أضام وأنت النصير لى؟ أم كيف أخيب وأنت الحفيى فى؟ ها أنا أتوسل إليك بفقرى إليك، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك؟ أم كيف أشكو إليك حالى وهى لا تحفى عليك؟ أم كيف أترجم لك بمقالى وهو منك برز إليك؟ أم كيف تخيب آمالى وهى قد وفدت إليك؟ أم كيف لا تحسن أحوالى وبك قامت وإليك؟

إلهى ما أطفك فى مع عظيم جهلى، وما أرحمك فى مع قبيح فعلى؟
إلهى ما أقربك منى وما أبعدنى عنك؟
إلهى ما أرفأك فى فما الذى يحجبني عنك؟
إلهى قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك منى أن تتعرف إلى فى كل شىء حتى لا أجهلك فى شىء.

إلهى كلما أخرسنى لؤمى أنطقنى كرمك، وكلما أياستنى أوصافى أطمعتنى مننك.
إلهى من كانت محاسنه مساوئ فكيف لا تكون مساوئه مساوئ؟ ومن كانت حقائقه دعاوى فكيف لا تكون دعاويه دعاوى؟

إلهى حكمك النافذ ومشيتك القاهرة لم يتركاً لذى مقال مقالاً ولا لذى حال حالاً.
إلهى كم من طاعة بنيتها وحالة شيدتها هدم اعتمادى عليها عدك، بل أقالنى منها فضلك.
إلهى إنك تعلم وإن لم تدم الطاعة منى فعلاً جزماً فقد دامت محبةً وعزماً.
إلهى كيف أعزم وأنت القاهر، وكيف لا أعزم وأنت الأمر.

إلهى ترددى إليك فى الآثار يوجب بعد المزار فاجمعنى عليك بخدمة توصلى إليك.
إلهى كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك؟ أليكون لغيرك من الظهور ما ليس لك

حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك.

إلهي عَيمت عينٌ لا تراك عليها قريباً رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً؟
إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار فارجعني إليها بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار: حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصون السر عن النظر إليها ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها، إنك على كل شيء قدير.

إلهي هذا ذلّي ظاهر بين يديك، وهذا حالي لا يخفى عليك، منك أطلب الوصول إليك؛ وبك أستدلّ عليك؛ فاهدني بنورك إليك، وأقمني بصدق العبودية بين يديك.
إلهي علمني من علمك المخزون وصنّ بسر اسمك المصون.
إلهي حقّقني بحقائق أهل القرب، واسلك بي مسالك أهل الجذب.

إلهي اغني بتدبيرك عن تدبيرى وباختيارك لى عن اختياري، وأوقفني على مراكز اضطراري.
إلهي أخرجني من ذلّ نفسي، وطهرني من شكّي وشركي قبل حلول رمسي، بك أستنصر..
فانصرني، وعليك أتوكل فلا تكلني، ولجنايك أنتسب فلا تبعدني، وبياك أقف فلا تطردني، وإياك أسأل فلا تخيبي، وفي فضلك أرغب فلا تحرمي.

إلهي تقدّس رضاك أن تكون له علة منك فكيف تكون له علة مني؟ أنت الغنى بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك فكيف لا تكون غنياً عني؟

إلهي إن القضاء والقدر غلبني، وإن الهوى بوثاق الشهوة أسرنى، فكن أنت النصير لى حتى تنصرنى فى نفسى وتنصرنى، وأغنى بوجودك حتى أستغنى بك عن طلبى، أنت الذى أزلت الأغيار من قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجئوا إلى غيرك أنت المؤمنس لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذى هديتهم حتى استبانتم لهم المعالم، ماذا وجدّ من فقدك، وما الذى فقد من وجدك؟ لقد خاب من رضى دونك بدلاً، ولقد خسر من بغى عنك جِوْلاً.

إلهي كيف يُرجى سواك وأنت الذى ما قطعت الإحسان؟ وكيف يُطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان؟ يا من أذاق أحبائه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين، وبامن ألبس أوليائه ملابس هيبته فقاموا بعزته مستعزّين، أنت الذاكر من قبل ذكر الذاكرين، وأنت البادئ بالإحسان من قبل توجه العابدين وأنت الجواد بالعطايا من قبل طلب الطالبين، وأنت الوهاب ثم أنت لماً وهبتنا من المستقرضين.

إلهي اطلبنى برحمتك حتى أصل إليك، واجذبني بمَنّك حتى أقبل عليك.
إلهي إن رجائى لا ينقطع عنك وإن عصيتك، كما أن خوفى لا يزائلى وإن أعطتك.
إلهي قد دفعتنى العوالم إليك وقد أوقفنى علمى بكرمك عليك.
إلهي كيف أخيب وأنت أملئ؟ أم كيف أهان وعليك متكلّ؟

إلهى كيف أستعزّ وفي الدّلة أركزتي؟ أم كيف لا أستعز وإليك نسبتي؟
 إلهى كيف لا أفتقر وأنت الذى فى الفقر أقمّتي؟ أم كيف أفتقر وأنت الذى بجودك أغنيتني؟
 أنت الذى لا إله غيرك، تعرفت لكل شيء فما جهلك شيء، وتعرفت إلى في كل شيء فأريتك
 ظاهراً في كل شيء، فأنت الظاهر لكل شيء، يامن استوى برحمانيته على عرشه فصار العرش غيباً
 في رحمانيته كما صارت العوالم غيباً في عرشه، محقّت الآثار بالآثار، ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك
 الأنوار، يامن احتجب في سرادقات عزّه عن أن تدركه الأبصار، يامن تجلّى بكمال بهائه فتحققت
 عظمته الأسرار: كيف تخفى وأنت الظاهر؟ أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر؟ (١.هـ.).
 وبعد: فلقد لازم ابن عطاء الله أستاذه أبا العباس رضى الله عنهما، ثم كان من بعده شيخ
 الطريقة الشاذلية إلى أن توفى في جمادى الآخرة سنة ٧٠٩.
 وأما بعد: فالله أرجو أن يهدى لهذا الكتاب وأن يهدى به إنه سميع قريب مجيب. وصلى الله على
 سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه إلى يوم الدين.

كِتَاب لطائف المتن

في مناقب علم المهتدين، وقدوة السالكين، سيدى أبى
العباس أحمد بن عمر الأنصارى المرسى وشيخه قطب
الأقطاب، ودستور عوارف المعارف بلا ارتياب سيدى أبى
الحسن الشاذلى.

تأليف

شيخ الحقيقة، وإمام الطريقة، الشيخ الإمام تاج الدين أبى الفضل أحمد ابن الشيخ
الهام فخر الدين أبى بكر محمد ابن الشيخ الإمام العلامة رشيد الدين أبى محمد
عبد الكريم بن عطاء الله رضى الله عنهم أجمعين، ونفعنا بهم آمين.

oboi.kandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذى فتح لأوليائه^(١) باب محبته، وأنشط نفوسهم من عقال القطيعة^(٢)، فقاموا

(١) إن من الأهمية بكان - في ابتداء هذا الكتاب المبارك - أن نتحدث عن الولاية، وذلك أن المؤلف رضى الله عنه يتحدث عن الولاية نظرياً بكلام غاية في النفاسة، ويذكر كرامات وقعت بالفعل لكثير من الأولياء. وليس لأحد أن يبتدع تعريفاً للولاية بعد تحديد الله سبحانه وتعالى لها، إنه سبحانه وتعالى يقول عن الأولياء، إنهم: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

ولقد أبان الله سبحانه وتعالى رعايته لهم، وعنايته بهم، فقال سبحانه:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وزاد سبحانه وتعالى تفضلاً بالنسبة لهم فقال: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

ثم أكد سبحانه ذلك بقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾!

ثم بين نفاسة الثمار التي تجني من الولاية فقال: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (يونس: الآيات ٦٢-٦٤).

وإن كل حديث عن الولاية إنما هو تفسير لهذه الآيات الكريمة، ومن ذلك الحديث القدسي الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ:

«مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَّافُلِ حَتَّى أَحِبُّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي أُعْطِيَتْهُ، وَلِئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِذَّنَّهُ» ومعنى آذنته بالحرب: (أعلمته بأن محارب له) ومن ذلك ما يقوله صاحب كتاب: (أنس الفقير) - ننقله هنا؛ لأنه يعبر تعبيراً كاملاً عن وجهة نظرنا في هذا الموضوع - يقول: (فأما صفة الولي، فقد دل - رسول الله ﷺ - على صفة الأولياء فقال:

«الذين إذا رؤوا ذكر الله عز وجل» (سنن ابن ماجه والحلية ٦١).

وفي هذا الحديث الشريف من الدلالة عليهم كفاية تامة، فأولياء الله تعالى: «الذين إذا رآهم المؤمن عظم ربه، وذكر ذنبه». ويقول:

«واعلم أن من امتثل أوامر الله تعالى، واجتنب نواهيه، ورزق الخوف من الله تعالى، لا من خلقه، واجتهد في طاعته - جل وعلا - وبحث عن أمر كسبه ووقف عندما حد له، ورجع عن كل ما لا يعلم حكمه: فهو الصالح.

وأعلى درجة من هذا: حصول الورع التام، وترك الطمع، وبغض الدنيا ومن تمسك بها، والفرار من دواعيها، ومن أهلها، والمقناعة باليسير منها. ودرجات الصالحين تختلف بالترقى في ذلك على حسب العناية من الله تعالى..

واعلم أن الكرامة ليست من شرط حصول الولاية، فقد تحصل الكرامة، لكن إن وقعت لولي، فهي دالة على صدق عبادته، وعلو مكانته، بشرط أتباعه لحقيقة ما أمر به النبي عليه السلام، وإلا فهي خذلان من الشيطان. ومن الصالحين من يعلم بولايته، ويعلم غيره بها، ومنهم من لا يعلم بنفسه، ولا يعلم به، ومنهم من يعلم به، ولا يعلم هو بنفسه، والعالمون بها: منهم من يكتمها جهد استطاعته، ومنهم من يظهرها ويصرح بها» اهـ.

«لا يستدل على الولي بالكرامة لاحتمال أن تكون من الشيطان، وإنما يستدل على صدق الكرامة بصحة الولاية». وكرامات الصحابة والتابعين لا تكاد تحصى:

ففي البخاري أن رجلين خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة. فإذا النور بين أيديهما حتى تفرقا، ففرق النور معهما! وفي البخاري - أيضاً -: أن عمران بن حصين كانت تكلمه الملائكة.

ونادى عمر بن الخطاب: «ياسارية الجبل!» يحضه على الرجوع إلى الجبل حذراً من العدو، وبينها مسيرة أيام. فرآه وسمعه سارية. فرجع إلى الجبل وسلم من العدو.

(٢) أى حل نفوسهم وفكها من أسر المعاصي التي تقطع الصلة بينهم وبينه.

بوجوب خدمته، وأمدّ عقولهم بنوره، فعاينت عجائب قدرته، وحرس قلوبهم من الأغيار^(٣)، ومحا منها صور الآثار، حتى ظفرت بمعرفته!

كشف لأرواحهم عن قدس كماله، ونعوت جلاله، فهم سبايا حضرته^(٤).

متّع أسرارهم بقربه، بخطفات جذبه، فتحققوا بشهود أحدىته.

أخذهم منهم، وأفانهم عنهم، ففرقوا في بحر هويته.

فرّق جيوش التفرقة بكتائب الجمع^(٥) لأهل خصوصيته، ونجّى جمى الأسرار بمدد الأنوار أن يكون مظهرًا لغير فرديته!

أطلع كواكب العلوم في سماء الفهوم تهدي السائرين لحضرة ربوبيته، وأضاء قمر التوحيد في بيداء التفريد، فانطوت الكائنات في وجود أزلته، وما كانت معه في أزله^(٦) حتى تكون معه في أبديته، بل هو الأول والآخِر لا بالإضافة لبريته، والظاهر والباطن كذلك، وما الكون حتى يقاس بقدوسيته؟!

أحمده والمحمد واجب لصفات جلاله وعظمته.

وأشكره، والشكر مستحق له بإسباغ نعمته.

وأرجوه، وكيف لا أرجوه، وهو الذي وسع كل شيء برحمته^(٧)، وغمر العباد في الغيب والشهادة بطوائل منته.

وأعترف له بالتقصير عن القيام بحقوق أحدىته.

واعلم أنه لا يحاط بذاته وصفته.

ليس للعبد منه إلّا ما منّ به عليه، ولا يضاف له من المحاسن إلّا ما أضافه إليه^(٨)، ولا ينتصر

(٣) الأغيار: - أو ما يعجز عنه - يد (السوى) هو: كل ما سوى الله سبحانه وتعالى.

وأولياء الله سبحانه وتعالى لا يستعبد قلوبهم صنم من الأصنام الكثيرة التي تتمثل في شهوة أو جاه أو ثراء، وقلوبهم ملأى بالله سبحانه.

(٤) سبايا: أسرى.

(٥) مما يجري في كلام الصوفية كثيرًا: «الجمع والتفرقة»، قال الأستاذ أبو علي الدقاق: الفرق ما نسب إليك، والجمع ما سلب عنك. ومعناه: أن ما يكون كسبًا للعبد من إقامة العبودية، وما يليق بأحوال البشرية، فهو الفرق.

وما يكون من قبل الحق: من إبداء معان. وإسداء لطف وإحسان فهو جمع، هذا أدنى أحوالهم في الجمع والفرق: لأنه من شهود الأحوال. فمن أشهده الحق سبحانه أفعاله عن طاعته ومخالفاته، فهو عبد بوصف التفرقة، ومن أشهده الحق - سبحانه - ما يوليه من أفعال نفسه سبحانه. فهو عبد بشاهد الجمع.

(٦) وقد روى البخاري مقدم أهل اليمن لرسول الله ﷺ بعد قبولهم الإسلام وقولهم له ﷺ: جئنا نسألك عن - أول - هذا الأمر ما كان. فقال ﷺ: كان الله ولم يكن شيء غيره - وفي رواية ولم يكن شيء قبله - وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء. وخلق السموات والأرض - وذكر في فتح الباري أن بعض الروايات فيها: كان الله ولا شيء معه.. ويستفاد من هذه الروايات وغيرها: أن الله سبحانه: كان. ولا عرش ولا كرسي، ولا ماء، ولا كون - وكل ما يقال عن قدم العرش أو الكرسي فهو من الأباطيل.

(٧) قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾.

(٨) إن الإنسان في كل ما يتعلق بالله سبحانه، ذاتا وصفات - يجب عليه أن يلتزم التزامًا كاملاً بما ورد في الآثار الصحيحة، =

في المصادر والموارد إلا بالتوكل عليه.

العزیز القادر، الحکیم القاهر، الرقیب علی فعل کل فاعل، ونظر کل ناظر، لا یخفی علیہ ما فی الضمائر، ولا یعزب عن علمه مستکونات السرائر! أظهر فی ملکہ حکمتہ، وفی مکوتہ قدرته، وتعرف لكل شیء، فلا شیء یجحد ربوبیته، ﴿ألا له الخلق والأمر تبارک الله رب العالمین﴾^(٩). وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شریک له، وكل شیء یشهد بأحدیته فی ألوهیته. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المصطفی من خلیقته المشهود له فی الغیب والشهادة بکمال خصوصیتہ، القائم لمولاه بکمال الوفاء فی عبودیتہ، صلی الله علیه وعلى آله وصحبه، صلاة تدوم بدوام أبدیتہ وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإنی قصدت فی هذا الكتاب أن أذكر جملاً من فضائل سیدنا ومولانا الإمام: قطب العارفين، علم المهتدين، حجة الصوفية، مرشد السالكين منذ الهالكين، الجامع بين علم الأسماء والحروف والدوائر، المتكلم بنور بصيرته الكاملة على السرائر، كهف الموقنين، ونخبة الواصلين، مظهر شمس المعارف بعد غروبها، ومبدئ أسرار اللطائف بعد عزومها^(١٠) الواصل إلى الله، والموصل إليه: «شهاب الدين: أبي العباس بن عمر الأنصاري المرسى».

أسكنه الله حظيرة قدسه، ومتعه - على مر الساعات - بموارد أنسه، وأذكر شیخه الذی أخذ عنه، ومنازلاته^(١١) التي نقلت عنه، أو سمعها منه، وكراماته، وعلومه وأسراره، ومعاملاته مع الله سبحانه وتعالى، وما قاله من تفسير آية من كتاب الله عز وجل، أو إظهار لمعنى خبر نقل عن رسول الله ﷺ، أو كلام على حقيقة - نقلت عن أحد من أهل الطريق - أشكل معناها، ولم يفهم مغزاها، وما نقله عن شیخه الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضى الله عنه، وما قاله هو من الشعر، أو قيل بحضرته، أو قيل فيه مما يتضمن ذكر الطريق وأهلها؛ وأنقل ما يمكن إثباته من أخباره كثيرها وقليلها.

وكان أصحاب الشيخ الإمام القطب أبي الحسن - قدس الله روحه - قد أنبتوا جملاً من كلامه، وإن كان هو - رضى الله عنه - لم يضع كتاباً؛ وقد بلغنى عنه أنه قيل له: يا سيدى لم لا تضع الكتب فى الدلالة على الله تعالى وعلوم القوم؟

- فقد بلغ رسول الله ﷺ كل ما يحتاج الإنسان إليه فى أمر العقيدة، ولم يختلف المسلمون إلا عندما تعدوا النصوص، وأخذوا يقولون بأرائهم، أو أخذوا يضيفون إلى النصوص من عند أنفسهم، وكل ما يتصل بالذات أو الصفات يجب الإيمان به، على مراد الله فيه، فمثلاً حينما يقول الله سبحانه:

﴿يد الله فوق أيديهم﴾.

نقول فيها: إننا نؤمن بها على مراد الله سبحانه - وقوله تعالى:

﴿الرحمن على العرش استوى﴾.

نقول فيها: إننا نؤمن بها على مراد الله فيها، وكل ما يتأتى من تأويل أو خروج عن هذا الموقف فإنه ليس سبيل أسلافنا - رضوان الله عليهم - وكلام المؤلف فى ذلك من أحكم ما قيل.

فقال رضى الله عنه: كتيبى أصحابي!

كذلك شيخنا أبو العباس - رضى الله عنه - لم يضع في هذا الشأن كتاباً. والسبب في ذلك: أن علوم هذه الطائفة علوم التحقيق، وهى لا تحملها عقول الخلق.

ولقد سمعت شيخنا أبا العباس - رضى الله عنه - يقول:

جميع ما في كتب القوم عبرات دموع من سواحل من بحر التحقيق!

ولا أعلم أن أحداً من أصحاب شيخنا أبي العباس رضى الله عنه تصدى إلى جمع كلامه، وذكر مناقبه وأسرار علومه وغرائبه، فحداني ذلك إلى وضع هذا الكتاب بعد أن استخرت الله تعالى وطلبت منه المعونة وهو خير معين، وسألته أن يهديني إلى الصراط المستبين..

وقسمته إلى مقدمة، وعشرة أبواب، وخاتمة:

أما المقدمة فتشتمل على إقامة الدليل على أن نبينا محمداً ﷺ أفضل بنى آدم، بل أفضل البشر، بل أفضل الخلق كافة^(١٢)..

وأفردت كل مقام بإقامة الدليل عليه من كتاب الله عز وجل، وسنة نبيه ﷺ، وبينت أن مدد الأولياء من الحقيقة المحمدية^(١٣)، وأن الأولياء إنما هم مظاهر أنوار النبوة^(١٤)، ومطالع شوارقها..

(١٢) يقول الله تعالى: ﴿إِن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

والتقوى درجات. وأساسها اتقاء الشرك. ثم اتقاء المعاصي. ثم اتقاء الغفلان ثم اتقاء الخطرات. والدرجة العليا هي «أن يسلم لله قلوبك» «وأن يسلم لله قلبك» في كمالها وتامها لم تكن إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وصورتها الصافية الصادقة هي ما عبر الله سبحانه وتعالى عنها بقوله لرسوله ﷺ:

﴿قُلْ إِن صَلَاتِي وَنَسْكَى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾. وهذه الدرجة لم يبلغها نبي مرسل فضلاً عن عامة البشر، إنها خاصة برسول الله ﷺ، ومن هنا كان أفضل الخلق على الإطلاق.

وكان العالم ناقصاً قبل وجوده ﷺ. فلما وجد كمل العالم.. إنه ﷺ (اللينة) التى كان قبلها الملك في حاجة إليها ليكمل. قال ﷺ في الحديث الصحيح:

«مثل وشل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين».

أخرجه: البخارى ومسلم والإمام أحمد والترمذى - مع اختلاف يسير في الألفاظ.

(١٣) يتحدث كثير من الناس عن (الحقيقة المحمدية): ويتساءل كثير من الناس عن هذه الحقيقة: ماهي؟ وينكر بعض الناس هذه الكلمة، أو على الأقل يجادل فيها ويمارى؟

والواقع أن الأمر أيسر من أن يثير نقاشاً، وأوضح من أن يكون مصدر ممرارة أو إنكار.

فالحقيقة المحمدية هي: النبوة، ومحمد ﷺ: حقيقته نبوته، وهذه النبوة في علم الله منذ الأزل، قدرها الله سبحانه وتعالى بحكمته قبل خلق الكون، وقبل وجود العالم.

وعلى هذا الأساس يمكنك أن تقول:

إن الحقيقة المحمدية أزلية أو قديمة، وتقصد أنها كذلك في علم الله، ويمكنك أن تقول: إن الحقيقة المحمدية حادثة، وذلك يوم بعثته أى سنة ثلاث عشرة قبل الهجرة عندما أشرق فجر الهداية الخاتمة وبدأ النور يشرق مستفتحاً بـ ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾ والأمر على هذا الوضع لا يثير ممرارة ولا إنكاراً - والله أعلم.

(١٤) إن تفسيرنا السابق للحقيقة المحمدية يتناسق - كما يرى القارئ - مع كلام المؤلف عن الأولياء.

وأعلمت أن أنوار الولاية دائمة الثبوت للزوم دوام أنوار النبوة. وذكرت الفرق بين الرسالة والنبوة والولاية^(١٥)..

وبينت من هو الأولى بالميراث في قوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»..
وبينت ماهو العلم الذي أثنى الله عليه، ومن هم العلماء الذين هم أولى بالزلفى لديه..
وبينت أن الأولياء الظاهرين في أوقات الظلمة أولى بأن يكثر الله أنوارهم، ويجزل لهم من وجود اليقين ما يوجب انتصارهم، ليدافعوا ظلمة الأوقات، وليهزموا بعساكر أنوارهم جيوش الغفلات.
وذكرت أقسام الولاية، غزارة قدر الولي، وفخامة رتبته؛ وشفوف^(١٦) منزلته، مما تضمنه الكتاب العزيز والأحاديث النبوية، ليكون ذلك توطئة لك بتصديق مايرد عليه من أخبار أوليائه، وكرامات أصفياه.

وأما الأبواب:

فالباب الأول: في التعريف بشيخه الذي أخذ عنه هذا الشأن، وشهادة من عاصره من العلماء الأعيان: أنه قطب الزمان، والحامل في وقته لواء أهل العيان.
الباب الثاني: في شهادة الشيخ له أنه الوارث المقام، والحائز قصب السبق بالتمام، وإخباره هو

(١٥) حينما يقطع الإنسان الطريق يصل إلى الولاية.

والولي إما أن يمكث ولياً فقط، فتكون معرفته خاصة به، أو يختاره الله لتأدية رسالة إلى الآخرين فيكون نبياً، أو يكون رسولاً.

والرسول نبي، ولكن رسالته تأخذ صبغة عالمية، أما رسالة النبي فإنها محددة الأهداف محدودة المكان. إن الرسول مظهر الصفة الإلهية «الرحمن» في جميع أنحاء العالمين، إنه: (رحمة للعالمين) فلا تقتصر رسالته على دائرة خاصة. ولاشك أن النبوة أسمى من الولاية، ومع ذلك فقد رأى بعضهم أن مقام الولي (القرب) من الله في حين أن النبي منتج بطبيعة رسالته إلى الخلق، ولكن ذلك خطأ محض، فإن النبوة تتضمن الولاية، فهي متضمنة لمقام القرب، ثم إنها أكثر من الولاية، وعلى ذلك فإن حالة الولي (ناقصة) بالنسبة لحالة النبي، إنها ليست قاصرة بالنسبة لطبيعتها الخاصة، ولكنها قاصرة بالنسبة لدرجتها في العموم، وهذا العموم يصل إلى أعلى درجات ازدهاره في الرسالة: إذ هي عالمية والرسول - لاغيره - هو حقيقة (الإنسان العالمي).

والرسول - كما للنبي - اتجاهان:

١ - اتجاه داخلي: إنه الاتجاه نحو الحق.

٢ - اتجاه خارجي: إنه الاتجاه نحو الخلق.

ودرجة الرسول العالمية أسمى من درجة النبي المحدودة، ودرجة النبي المحدودة أسمى من درجة الولي الخاصة، ومقام الجميع القرب.

(١٦) نعود فنقول: إن الأولياء هم:

﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

والذي يعاديهما إما يعادى الإيمان والتقوى، ولا يكون هذا إلا فيمن تمحض للشر والعياذ بالله، وعلى هذا الأساس يفهم كلام المؤلف رضى الله عنه سواء في ذلك الكلام في هذا الموضع أو الكلام المشابه فيما يأتي في الكتاب..

عن نفسه بما من عليه من النعم الجسام، وشهادة الأولياء له بأنه: بلغ من الوصول إلى الله لأفضل مرام.

الباب الثالث: في مجرباته ومنازلاته، وما اتفق لأصحابه معه ومكاشفاته.

الباب الرابع: في علمه وزهده، وورعه ورفع همته، حلمه وصبره وسداد طريقته.

الباب الخامس: في آيات من كتاب الله تعالى تكلم على تبين معناها، وإظهار فحواها.

الباب السادس: فيما فسره من الأحاديث النبوية وإبداء أسرار فيها على مذهب أهل الخصوصية.

الباب السابع: في تفسيره لما أشكل من كلام أهل الحقائق، وحمله لذلك على أجل الطرائق..

الباب الثامن: في كلامه في الحقائق والمقامات، وكشفه فيها عن الأمور المعضلات..

الباب التاسع: فيما قاله من الشعر أو قيل بحضرته أو قيل فيه مما يتضمن ذكر خصوصيته.

الباب العاشر: في ذكره ودعائه عقب كلامه، وحزبه الذي رتبته للأخذين في علومه وأفهامه، ولوازم ذلك من ذكر شيخه أبي الحسن وحزبه، ليتم العقد بنظامه..

وأما الخاتمة: ففي اتصال نسبتنا إليه.. ووصاياه نثرا ونظما تُنهض إلى الله وتجمع عليه، وهي آخر الكتاب..

وليس كل شيء سمعته من الشيخ رضى الله عنه استحضرته وقت وضعي لهذا الكتاب، ولا كل شيء استحضرته يمكن إثباته، وقصدت بذلك أن تنتفع به هذه الطائفة^(١٧) خصوصاً وغيرهم عموماً، ليؤمن بأحوال هذه الطائفة من قسم الله له نصيباً من المنة، وجعل في قلبه نورا من الهداية، وليرجع المكذب إلى الاعتراف والمكابرة إلى وجود الإنصاف، ولتستبين لمن أراد الله به الهدى المحجة؛ وتقوم على من لم تنصره عناية الله المحجة؛ فيكون للمصدق بتصديقه لهذه الطائفة نصيب من الولاية؛ ودنو من العناية..

وقد قال الجنيد^(١٨) رضى الله عنه: التصديق بعلمنا هذا ولاية؛ وإذا فاتتكَ المنة في نفسك فلا

(١٧) الصوفية على وجه العموم، وليس مقصوده الشاذلية فحسب.

(١٨) سيد هذه الطائفة وإمامهم: أصله من نهاوند، ومنشؤه ومولده بالعراق، وأبوه كان يبيع الزجاج فلذلك يقال له «القواريري» وكان فقيهاً على مذهب أبي ثور، وكان يفتي في حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة، مات سنة سبع وتسعين ومائتين (٢٩٧ هـ) ببغداد.

قال الروذباري: سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة وقال: أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل، فقال الجنيد: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهو عندى عظيمة، والذي يسرق ويرزق أحسن حالاً من الذي يقول هذا فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى، وإليه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال في دوتها..

وقال الجنيد: الطرق كلها مسدودة على الخلق: إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ.

تفتك أن تصدق بها في غيرك؛ ﴿فإن لم يصبها وابل فطل﴾^(١٩) وقد قال بعض العارفين: التصديق بالفتح لا يكون إلا بفتح.

مصدق ما قال هذا العارف قول الله تعالى:

﴿ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾^(٢٠).

وقال سبحانه: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾^(٢١).

وقال سبحانه: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾^(٢٢).

وقال: ﴿إنما يتذكر أولو الأبواب﴾^(٢٣).

وإذا أراد الله خيراً جعله من المصدقين لأوليائه فيها جاءوا به؛ وإن قصر عقله عن إدراك ذلك؛ فمن أين يجب أن لا يهب الله لأوليائه إلا ما تسعه عقول العباد؛ وقد قالوا: يخشى على المكذب لهم سوء الخاتمة^(٢٤).

وقد قال أبو تراب النخشي^(٢٥): من لم يصدق بهذه الكرامات فقد كفر^(٢٦)؛ أى قد غطى عليه الأمر؛ وستر عنه شهود قدرة الله تعالى؛ جعلنا الله وإياكم من المعترفين بفضلته في عبادته؛ ومن المصدقين بأثار عنايته في أهل وداده؛ إنه ولى ذلك والقادر عليه..

ولم أخل الكتاب من الكلام على الشيء المشكل وحل الأمر المعضل؛ والتنبيه على أمور جلية؛ وإظهار أسرار أبصار من لم يؤمن بهذه الطائفة عنها كليلة..

= وقال: من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة..

وقال: مذهبتنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة، وعلمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ وبلغ من تقديره أن كان الكنية

(الأدباء) يحضرون مجلسه لألفاظه.

والفقهاء لتقريره.

والفلاسفة لدقة نظره ومعانيه.

والمتكلمون لتحقيقه.

والصوفية لإشارته وحقايقه.

(١٩) البقرة: ٢٦٥.

(٢٠) ق: ٣٧.

(٢٠) التور: ٤٠.

(٢٣) الزمر: ٩.

(٢١) الذاريات ٥٥.

(٢٤) إن المكذب للأولياء مكذب للإيمان والتقوى اللذين هما ماهية الولي، وليرجع القارئ إلى ما كتبناه في مقدمة الكتاب.

(٢٥) هو أبو تراب عسكر بن حصين النخشي، من أجل مشايخ خراسان، يتحدث عنه ابن الجلاء عن خبرة ومشاهدة ومعرفة فيقول: «لقيت ستمائة شيخ، ما لقيت فيهم مثل أربعة: أولهم أبو تراب النخشي، ويقول صاحب الكواكب الدرية: كان شيخ عصره بالاتفاق، جامعاً بين العلم والدين والزهد والتصوف بلا شقاق، متخشعاً متوكلاً، متخشعاً متبتلاً، قد أضاء في سماء المعاني بذكره، واشتهر في سماء المعاني بحسنه وذكره.

(٢٦) من معاني الكفر: السر والتغطية، وكل شيء غطي شيئاً فقد «كفر»، ويسمى الزارع كافراً لأنه يغطي البذر بالتراب، ويسمى الزارع كافراً لذلك - وهذا هو المعنى الذي أراد أبو تراب، ومن معاني الكفر بطبيعة الحال: أنه ضد الإيمان، وليس هذا هو المعنى المراد في هذه الكلمة.

فالله سبحانه وتعالى يجعل ذلك لوجهه خالصاً؛ ومن أحوال القطيعة مخلصاً؛ وأن يمين علينا بالصدق في الأقوال والأفعال والأحوال؛ وأن يجعلنا من العارفين به في الحال والمآل؛ وأن يتفضل علينا بالفهم عنه؛ وحسن الاستماع منه؛ إنه الإله القدير؛ وبالإجابة جدير..

وسمّيته: «لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن».

وهذا أوان ابتدائي بما قصدت؛ وإظهار ما أردت؛ وبالله تعالى أستعين وعليه أتوكل؛ وإليه بجاه محمد سيّد المرسلين ﷺ أتوسّل؛ وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أما المقدمة:

فاعلم أن الله سبحانه وتعالى لما أراد إتمام نعمته؛ وإفاضة فيض رحمته؛ واقتضى فضله العظيم أن يمين على العباد بوجود معرفته؛ وعلم سبحانه عجز عقول عموم العباد عن التلقّي من ربوبيته؛ جعل الأنبياء والرسل لهم الاستعداد التام لقبول ما يرد من ألوهيته؛ يتلقّون منه بما أودع فيهم من سرّ خصوصيته؛ وتلقّون عنه: جمعاً للعباد على أحديته؛ فهم برازخ الأنوار؛ ومعادن الأسرار؛ رحمة مهداة؛ ومنة مصفاة؛ حرس أسرارهم في أزلّه من رقّ الأغيار^(٢٧)؛ وصانهم بوجود عنايته من الركون إلى الآثار، لا يحبّون إلا إياه، ولا يعبدون سواه، يلقي الروح من أمره عليهم، ويواصل الإمداد بالتأييد إليهم، وما زال فلك النبوة والرسالة دائراً إلى أن عاد الأمر من حيث ابتدى، وختم بمن له كمال الاصطفاء، وهو نبينا محمد ﷺ السيد الكامل، الفاتح الخاتم، نور الأنوار، وسر الأسرار، والمبجل في هذه الدار وفي تلك الدار، أعلى المخلوقات مناراً، وأتمهم فخاراً، دلّ على ذلك الكتاب المبين، قال الله تعالى:

﴿وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين﴾^(٢٨).

ومن رحم به غيره فهو أفضل من غيره، والعالم كل موجود سوى الله تعالى.

وأما تفضيله ﷺ على بنى آدم خصوصاً فمن قوله: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»^(٢٩).

وأما تفضيله على آدم فمن قوله ﷺ:

«كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»^(٣٠).

ومن قوله:

«آدم فمن دونه من الأنبياء يوم القيامة تحت لوائى. وأنا أول شافع، وأنا أول مشفع، وأنا أول

من تشقّ عنه الأرض»^(٣١)..

(٢٧) أى ما سوى الله.

(٢٨) الأنبياء: ١٠٧.

(٢٩) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه، ورواه مسلم وأبو داود عن أبي هريرة من حديث بغير زيادة: «ولا فخر»..

(٣٠) قال العلمى في شرح الجامع الصغير حديث صحيح، وأخرج أحمد والبخارى في تاريخه والبيهقى وابن السكن وأبو نعيم في الحلية وصححه الحاكم بلفظ: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد» وفي الترمذى وغيره عن أبي هريرة أنه قال للنبي ﷺ: متى كنت أو كتبت نبياً؟ قال: كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد. قال الترمذى: حسن صحيح: وصححه الحاكم أيضاً..

(٣١) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه ولفظه: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أول من تشقّ الأرض عنه ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر، ولواء الحمد بيدى يوم القيامة ولا فخر).

وحديث الشفاعة المشهور الذى أخبرنا به الشيخ الإمام الحافظ بقية المحدثين، شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن الدميّاطى بقراءتي عليه أو قراءة عليه وأنا أسمع، قال: أخبرنا الشيخان الإمام فخر القضاة أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد العزيز بن الحباب التميمي وأبو التقى صالح بن شجاع بن سيدهم المدلجى الكنانى، قالوا: أخبرنا الشريف أبو المفاخر سعيد بن الحسين بن محمد بن سعيد العباسى المأمونى قال: أخبرنا أبو عبد الله الفزارى قال: أخبرنا عبد الغافر الفارسى قال: أخبرنا أبو أحمد محمد بن عيسى بن عمرويه الجلودى قال: أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه قال: حدثنا أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى قال: حدثنا أبو الربيع العتكى قال: حدثنا حماد بن زيد قال: حدثنا معبد بن هلال العنزى.

وحدثنا سعيد بن منصور واللفظ له قال: حدثنا حماد بن زيد قال: حدثنا معبد بن طلال العنزى قال:

انطلقنا إلى أنس بن مالك وتشفعنا بثابت، فانتبهنا إليه وهو يصلى الضحى، فاستأذن لنا ثابت، فدخلنا عليه، وأجلس ثابتاً معه على سريريه، فقال له: يا أبا حمزة، إن إخوانك من أهل البصرة يسألونك أن تحدثهم حديث الشفاعة، قال: حدثنا محمد ﷺ قال: إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له: اشفع لذريرتك، فيقول:

لست لها ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله.

فيأتون إبراهيم عليه السلام فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسى عليه السلام فإنه كليم الله.

فيأتون موسى عليه السلام؛ فيقول:

لست لها، ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته.

فيأتون عيسى عليه السلام، فيقول:

لست لها، ولكن عليكم بمحمد ﷺ..

فأوتى فأقول: أنا لها، فأنتلق فأستأذن على ربى، فيؤذن لى، فأقوم بين يديه، فأحمده بحامد لا أقدر عليها إلا أن يلهمنيهِ الله عز وجل، ثم أخرج له ساجداً، فيقال لى: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطى، واشفع تشفع، فأقول: رب، أمتى أمتى، فيقال: انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها، فأنتلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربى، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخرج له ساجداً، فيقال لى: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطى، واشفع تشفع، فأقول: يا رب، أمتى أمتى، فيقال لى: انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنتلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربى فأحمده بتلك المحامد ثم أخرج له ساجداً، فيقال لى: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك، وسل تعطى، واشفع تشفع، فأقول: يا رب، أمتى أمتى، فيقال لى: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنتلق فأفعل ثم أرجع إلى

ربّي فأحمده بتلك المحامد ثم آخرّ له ساجدًا، فيقال لى: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطى، واشفع تشفع، فأقوم: يارب، أمتى أمتى، فيقال لى: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنتطلق فأفعل ثم أعود إلى ربّي فأحمده بتلك المحامد ثم آخرّ له ساجدًا، فيقال لى: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطى، واشفع تشفع، فأقول: يارب، أمتى أمتى، فيقال لى: انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار، فأنتطلق فأفعل.

هذا حديث أنس الذي أخبرنا به، فخرجنا من عنده، فلما كنّا بظهر الجبان قلنا: لو ملنا إلى الحسن فسألنا عليه وهو مستخف في دار أبي خليفة، قال: فدخلنا عليه فقلنا: يا أبا سعيد، خرجنا من عند أخيك أبي حمزة فلم نسمع بمثل حديث حدثناه في الشفاعة، فقال: هيه، فحدثناه الحديث، فقال: هيه، فقلنا: ما زادنا. قال: قد حدثنا به منذ عشرين سنة وهو يومئذ جميع (٣٢)، ولقد ترك شيئاً ما أدرى أنسى الشيخ أو كره أن يحدثكم فتتكلوا، فقلنا له: حدثنا، فضحك وقال:

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ (٣٣).

ما ذكرت لكم هذا إلّا وأنا أريد أن أحدثكم:

ثم أرجع إلى ربّي في الرابعة، فأحمده بتلك المحامد، ثم آخرّ له ساجدًا، فيقال لى: يا محمد، ارفع رأسك وقل يسمع لك، وسل تعطى، واشفع تشفع، فأقول: يارب ائذن لى فيمن قال: لا إله إلّا الله، قال:

ليس ذلك لك. أو قال ليس ذلك إليك، ولكن وعزّي وكبريائي وعظمتي لأخرجنّ من النار من قال: «لا إله إلّا الله» (٣٤).. قال:

(٣٢) أى في أكمل قوته وقام ذاكرته ونضرة رجوله.

(٣٣) الأنبياء: ٣٧.

(٣٤) أى ليخرجه سبحانه مآلاً بعد أن يكون قد استوفى جزاءه عما قدّم من معاصي. اللهم إلّا أن يتفضل سبحانه على البعض لحكمة، وقد روى البخارى ومسلم رضى الله عنها في هذا قوله ﷺ في حديث جامع:

«أنا سيد الناس يوم القيامة، هل تدرون ممّ ذاك؟!»

(يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فينظرهم الناظر، ويسمعهم الداعي وتدنو منهم الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يظيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما أنتم فيه إلى ما بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم!! فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم، فيأتونه، فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى إلى ما نحن فيه وما بلغنا! فقال: إن ربى غضب غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، وإنه نأى عن الشجرة فعصيت، نفسى. نفسى. نفسى. اذهبوا إلى غيرى. اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح: أنت أول الرسل إلى الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما بلغنا؟! ألا تشفع لنا إلى ربك؟

فيقول: إن ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لى دعوة دعوت بها على قومى، نفسى. نفسى. نفسى!!!

اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى إبراهيم.

فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبى الله وخليه من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟! =

فأشهد على الحسن أنه حدثنا به أنه سمع أنس بن مالك أراه قبل عشرين سنة، وهو يومئذ جميع (٣٥) ..

فانظر رحمك الله ما تضمنه هذا الحديث من فخامة قدره ﷺ، وجلالة أمره، ولأن أكابر الرسل والأنبياء لم ينازعوه في هذه الرتبة التي هي مختصة به وهي الشفاعة العامة في كل من ضمنه المحشر. فإن قلت: فما بال آدم أحال على نوح في حديث، وعلى إبراهيم في هذا، ودلّ نوح على إبراهيم، وإبراهيم على موسى، وموسى على عيسى، وعيسى على محمد ﷺ، ولم لم تكن الدلالة على محمد ﷺ من الأهل؟

فاعلم أنه لو وقعت الدلالة على محمد ﷺ من الأول لم يتبين من نفس هذا الحديث أن غيره لا تكون له هذه الرتبة، فأراد الحق سبحانه أن يدلّ كل واحد على من بعده، وكل واحد يقول: لست لها، مسلماً للرتبة، غير مدّعٍ لها، حتى أتوا عيسى فدلّ على رسول الله ﷺ، فقال: أنا لها. وفي هذا الحديث من الفوائد: أن الإيمان يزيد (٣٦) وينقص.

= فيقول لهم: إن ربّي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنّي كذبت ثلاث كذبات: نفسي. نفسي. نفسي.

اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى! فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله فضلك برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟

فيقول: إن ربّي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله وإنّي قد قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها: نفسي. نفسي. نفسي.

اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى. فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس في المهد، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربّي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله - ولم يذكر ذنباً - نفسي. نفسي. نفسي. اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ.

- وفي رواية: فيأتون فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟

فأنطلق فأتى تحت العرش، فأقع ساجداً لربّي، ثم يفتح الله على من محامده، وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتح على أحد قبله، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، وسل تعطى، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمّتي يارب، أمّتي يارب! فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيها سوى ذلك من الأبواب. ثم قال: والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة: كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى. (٣٥) والحديث في صحيح مسلم (شرح النووي ج ٣ ص ٢٦٣ ومعنى جميع مجتمع القوة والحفظ).

(٣٦) يقول الإمام البخاري عن الإيمان:

هو قول وفعل، ويزيد وينقص. ثم أخذ يبرهن على رأيه بالآيات القرآنية، نذكر منها: قال الله تعالى:

﴿لِيَزِدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾. ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾.

﴿وَيَزِدُّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾.

﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾.

﴿فَاخْشَوْهُمْ فزادهم إِيمَانًا﴾.

وفيه: أن المعارف لا تتناهى، من قوله: لا أقدر عليه إلا أن يلهمنيه الله عز وجل، ويشهد لذلك قوله ﷺ:

«لا أحصى ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» (٣٧).

ويشهد له قوله سبحانه وتعالى:

﴿ولا يحيطون به علماً﴾ (٣٨).

إلى غير ذلك من الفوائد التي لو تكلمنا عليها لخرجنا عن غرض الكتاب، ولقد سمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول:

جميع الأنبياء خلقوا من الرحمة، ونبينا ﷺ عين الرحمة، قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين﴾ (٣٩).

ﷺ، وشرف وكرم، ومجد وعظم، فدعا إلى الله بالبصيرة الواضحة (٤٠)، والبيئة الفاتقة، وقرب المدارك، وبين المسالك، وحث على سلوك سبيل الهدى، واجتناب سبيل الردى فما ترك شيئاً يقرب إلى الله إلا ودعا إليه، ولا أدباً يصلح أن يكون العبد به مع الله إلا وحث عليه، ولا شيئاً يشغل العباد عن الله إلا وحث العباد منه، ولا عملاً يقطعهم عن الله إلا وأخرجهم عنه، لا يألوا نصراً (٤١) في تخليص العباد من أحوال القطيعة، ومواطن الهلكة، إلى أن ترحل ليل الشرك، وانقضت آثاره، وأضاء نهار الإيمان وأشرقت أنواره، فرفع ﷺ من الدين لواءه، وقم نظامه، وقرر فرائضه وأحكامه، وبين حلاله وحرامه، وكما بين للعباد الأحكام، كذلك فتح لهم باب الأفهام حتى قال الراوى: لقد تركنا رسول الله ﷺ وإن الطير ليتحرك في السماء فنستفيد منه علماً، فقد قال سبحانه:

﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ (٤٢).

وقال سبحانه:

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ (٤٣).

وقال ﷺ:

(٣٧) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والإمام أحمد في مسنده.

(٣٨) طه: ١١٠.

(٣٩) الأنبياء: ١٠٧ - ويقول الرسول ﷺ: إما أنا رحمة مهداة، أى مهداة من الله سبحانه وتعالى إلى الإنسانية.

(٤٠) يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾، وإن من أول شروط الدعوة أن يكونوا على بصيرة من أمر دعوتهم، ومن أهم ما تتضمنه البصيرة: العلم، العلم بكتاب الله وسنة رسوله، وسيرته الشريفة.

(٤١) يقول الله تعالى في بيان حرص رسول الله ﷺ على هداية الناس: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾. ويقول سبحانه:

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيزٌ عليه ما عنتم، حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم﴾.

(٤٢) البقرة: ٢٥٦. (٤٣) المائدة: ٣.

«تركتهما بيضاء نقيّة» (٤٤).

فجزاه الله خير ما جرى نبياً عن أمته.

ولما أكمل ﷺ البيان لسبيل الرشاد، وأظهر المسالك الموصلة إلى الله للعباد، توفاه الله إلى الدار التي هي خير له وأولى، بعد أن خير فاختار الرفيق الأعلى.

ثم جعل الحق سبحانه الدعاء إلى الله في أمته أبداً، ودائماً سرمداً، بما ورثوا منه، وأخذوا عنه، وقد شهد لهم الحق بذلك، وجعلهم أهلاً لما هنالك، قال الله سبحانه:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ﴾ (٤٥).

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: أى على معاينة، يعاين سبيل كل واحد من الأتباع، فيحمله عليها.

ودليل ما قال الشيخ رضى الله عنه اختلاف وصاياه ﷺ لأصحابه على حسب اختلاف سبلهم، فقال لبلال رضى الله عنه:

(أنفق بلال، ولا تخش من ذى العرش إقلاقاً) (٤٦).

وقال لآخر أراد أن ينخلع عن ماله كله:

«امسك عليك مالك، فإنك إن تدع ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عائلة يتكفون الناس» (٤٧).

وقال له ﷺ رجل: أوصنى، فقال ﷺ:

«استح من الله كما تستحي من رجل صالح من قومك» (٤٨).

وقال له آخر: أوصنى. فقال: لا تغضب.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: فتح الحق سبحانه بقوله:

«أنا ومن اتبعني» باب البصائر للاتباع. يريد الشيخ أن قول الله سبحانه:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ﴾ (٤٩).

أى ومن اتبعني يدعو إلى الله على بصيرة، على ما يقتضيه اللسان؛ لأنك إذا قلت: زيد يدعو إلى

(٤٤) رواه أحمد وابن ماجه بنحوه ونص الحديث عن العرياض بن سارية: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون. ووجلت منها القلوب، فقلنا يا رسول الله، إن هذه لموعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ قال: «وقد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بدى إلا هالك، من بعث منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين. عضوا عليها بالنواجذ؛ وعليكم بالطاعة وإن كان عبداً حبشياً، فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد.

(٤٥) يوسف: ١٠٨.

(٤٦) البزار عن بلال والطبراني عن ابن مسعود.

(٤٧) رواه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث كعب بن مالك.

(٤٨) رواه ابن عدى بنحوه بسند ضعيف.

(٤٩) يوسف: ١٠٨.

السلطان على نصيحة هو وأتباعه، أى وأتباعه يُدعون إليه على نصيحة.
إذا ثبت هذا، فالرسول ﷺ يدعو إلى الله على بصيرة الرسالة الكاملة، والأولياء يدعون على حسب بصائرهم: قطبانية وصديقية وولاية، وقد قال ﷺ:
«العلماء ورثة الأنبياء»^(٥٠).

وقال ﷺ:

«إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم»^(٥١).

وقال ﷺ:

«علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل».

وههنا نكتة: وهو أنه ﷺ لم يقل: علماء أمتي كرسل بني إسرائيل، فمن الناس من ظن أن النبي هو الذي نبي^(٥٢) في نفسه، والرسول هو الذي أرسل إلى غيره، وليس الأمر كما ظن هذا القائل، ولو كان كذلك فلماذا خص الأنبياء دون الرسل بالذكر في قوله: علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل، وما يدل ذلك على بطلان هذا المذهب قول الله سبحانه:

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبيٍّ﴾^(٥٣) الآية.

فدل على أن حكم الإرسال يعمها، وإنما الفرق ما قال بعض أهل العلم: إن النبي لا يأتي بشريعة جديدة، إنما يجيء مقررًا لشريعة من كان قبله كيوشع بن نون فإنه إنما جاء مقررًا لشريعة موسى، وأمراً بالعمل بما في التوراة، ولم يأت بشرع جديد، والرسول كموسى عليه السلام إذ أتى بشرع جديد وهو ما تضمنته التوراة، فقال ﷺ: علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل، أى يأتون مقررين ومؤكدين وأمريين بما جئت به لا أنهم يأتون بشرع جديد.

إعلام وبيان:

اعلم أن قول رسول الله ﷺ:

«العلماء ورثة الأنبياء».

و«علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل».

و«إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم»..

و«ألا إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم»^(٥٤).

و«إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم»^(٥٥).

(٥٠، ٥١) رواه أبو داود والترمذي.

(٥٢) كون النبي ما نبي في نفسه أو بتعيين المتكلمين: «ما أوحى إليه ما يعمل به ولم يؤمر بتبليغه» والرسول هو ما أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه. هذا ما جرى عليه الغالبية من علماء علم الكلام، وما ذكره المؤلف هنا أدق وأوضح.
(٥٣) الحج: ٥٢ وقام الآية: ﴿إلا إذا ألقى الشيطان في أميته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾.

(٥٤) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

(٥٥) رواه أبو داود والترمذي.

وقوله سبحانه: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط﴾ (٥٦) وقال: ﴿والذين أوتوا العلم درجات﴾ (٥٧).

و: ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾ (٥٨).

وحينما وقع العلم في كتاب الله تعالى وكلام رسوله ﷺ فإنما المراد به: العلم النافع المخدم للهوى، القامع، الذى تكتنفه الخشية وتكون معه الإجابة قال الله سبحانه: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (٥٩).

فلم يجعل علم من لم يخشيه من العلماء علماً، وقد قال داود عليه السلام: يارب، ما علم من لم يخشك، وما خشية من لم يطع أمرك؟

فشاهد العلم الذى هو مطلوب الله الخشية، وشاهد الخشية موافقة الأمر، أما علم تكون معه الرغبة في الدنيا، والتملق لأربابها، وصرف الهمة إلى اكتسابها، والجمع والادخار، والمباهاة والاستكثار، وطول الأمل، ونسيان الآخرة، فما أبعد من هذا العلم علمه من أن يكون من ورثة الأنبياء. وهل ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث إلا بالصفة التى كان بها عند الموروث عنه؟

ومثل من هذه الأوصاف أوصافه من العلماء كمثل الشمعة تضىء على غيرها وهى تحرق نفسها (٦٠)؛ جعل الله العلم الذى علمه من هذا وصفه حجة عليه؛ وسببا في تكثير العقوبة لديه. ولا يغرنك أن يكون به انتفاع البادى والحاضر؛ فقد قال ﷺ: «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» (٦١).

ومثل من يتعلم العلم لا كتساب الدنيا وتحصيل الرفعة فيها كمثل من يرفع العذرة بملقعة من ياقوت؛ فما أشرف الوسيلة؛ وما أخس المتوسل إليه.

ومثل من قطع الأوقات في طلب العلم فمكث أربعين سنة أو خمسين سنة يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل من قعد هذه المدة يتطهر ويحجد الطهارة ولم يصل صلاة واحدة؛ إذ مقصود العلم العمل، كما أن المقصود بالطهارة وجود الصلاة، ولقد سأل رجل الحسن البصرى رضى الله عنه عن مسألة فأفتاه فيها، فقال الرجل للحسن: قد خالفك الفقهاء، فزجره الحسن وقال: ويحك، وهل رأيت فقيها؟ إنما الفقيه الذى فقه عن الله أمره ونهيه.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول:

(٥٦) آل عمران ١٨ - والقسط: هو العدل. (٥٨) العنكبوت: ٤٩.

(٥٧) المجادلة: ١١. (٥٩) فاطر: ٢٨.

(٦٠) ولأجل هذا كان الرسول ﷺ يقول في دعائه - كما رواه الإمام أحمد - اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها.

(٦١) رواه الطبراني وصححه السيوطي وفي معناه قوله ﷺ: إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم، رواه أحمد والنسائي وابن حبان والطبراني.

«الفقيه من انفقاً الحجاب عن عيني قلبه وشاهد ملكوت ربه».

وإذ قد عرفت أن الدعاء إلى الله لا يزال أبداً، فاعلم أن الأنوار الظاهرة في أولياء الله إنما هي من إشراق أنوار النبوة عليهم، فمثل الحقيقة المحمدية كالشمس، وقلوب الأولياء كالأقمار، وإنما أضاء القمر لظهور نور الشمس فيه ومقابلته إياها، فإذا الشمس منيرة نهاراً، ومضيئة أيضاً ليلاً، لظهور نورها في القمر الممدود منها، فإذا هي لا غروب لها فقد فهمت من هذا أنه يجب دوام أنوار الأولياء لدوام ظهور نور رسول الله ﷺ فيهم، فالأولياء آيات الله يتلوها على عباده بإظهاره إياهم واحداً بعد واحد:

﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق﴾ (٦٢).

وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول في قوله عز وجل:

﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ (٦٣).

أى ما نذهب من ولى لله إلا ونأت بخير منه أو مثله.

وقد سئل بعض العارفين عن أولياء المدد، أينقصون في زمن واحد؟

فقال: لو نقص منهم واحد ما أرسلت السماء قطرها، ولا أبرزت الأرض نباتها؛ وفساد الوقت لا يكون بذهاب أعدادهم؛ ولا ينقص إمدادهم؛ ولكن إذا فسد الوقت كان مراد الله سبحانه وقوع اختفائهم مع وجود بقائهم؛ فإذا كان أهل الزمن معرضين عن الله؛ مؤثرين لما سوى الله؛ لا تنجع فيهم الموعظة، ولا تقيلهم إلى الله التذكرة؛ لم يكونوا أهلاً لظهور أولياء الله فيهم؛ ولذلك قالوا: أولياء الله عرائس ولا يرى العرائس المجرمون. وقد قال ﷺ:

«لا تتوتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم» (٦٤).

فإذا كان الله سبحانه وصّانا على لسان رسوله ﷺ أن: لا تتوتوا الحكمة غير أهلها، فمن أولى بهذا الخلق الجميل منا، وقد قال ﷺ:

«إذا رأيت هوًى مطاعاً، وشحاً متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأى برأيه، فعليك بخويصة نفسك» (٦٥).

فسمعوا وصية رسول الله ﷺ، فأثروا الخفاء بل أثر الله لهم ذلك مع أنه لا بد أن يكون منهم في الوقت أئمة ظاهرين قائمين بالحجة، سالكين بالحجة، لقول رسول الله ﷺ.

(٦٢) المجاثية: ٦.

(٦٣) البقرة: ١٠٦.

(٦٤) إن حديث الصوفية عن بعض آيات القرآن، إنما هو إشارات تمر بوجودهم لا تنفى من قرب، ولا من بعد المعنى الذى يستمد من الآية بحسب اللغة وأسباب النزول، وموازين المفسرين، ولكن القرآن الكريم نبع فياض، يلهم ويشير ويوجه، وكل إنسان يأخذ منه بحسب صفاء نفسه، ولا عليه، فى ذلك ما دام مؤمناً بالمعنى الذى تقرره الأوضاع الإسلامية الصادقة عاملاً به. وفى ضوء ما قلناه - وهو الذى يعترف به جميع الصوفية - نرجو من القارئ الكريم أن ينظر إلى ما يأتى من حديث للصوفية فى إشاعات الآية الكريمة.

وهذا المعنى هو الذى يؤخذ من قوله تعالى: ﴿يؤتى الحكمة من يشاء﴾ وهى كلمة قرآنية لا منع فيها ولا تعميم. (٦٥) أبو داود فى الملاحم، والترمذى فى التفسير، وابن ماجه فى الفتن.

«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من نوافهم إلى قيام الساعة» (٦٦).
وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في مخاطباته لكميل بن زياد: اللهم لا تُخَلِّ الأرض من قائم لك بحجتك، أولئك الأقليون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً، قلوبهم معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في عبادته وبلاده، آه واشوقاه إلى رؤيتهم. وروى الإمام الرباني محمد بن علي الترمذي رضي الله عنه في كتاب «الختم» (٦٧) له، برفعه إلى ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«أمتي كالمنظر لا يدرى أوله خير أم آخره» (٦٨).
وروى أيضاً برفعه إلى أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ:
«خير أمتي أولها وآخرها، وفي وسطها الكدر».
وروى أيضاً برفعه إلى عبد الرحمن بن سمرة قال:

- جئت مبشراً من غزوة مؤتة، فلما ذكرت قتل جعفر وزيد وابن رواحة بكى أصحاب رسول الله ﷺ فقال ﷺ: ما يبكيكم؟ فقالوا: وما لنا لا نبكي وقد قتل خيارنا وأشرفنا وأهل الفضل منا؟ فقال ﷺ: «لا تبكوا، إنما مثل أمتي مثل حديقة قام عليها صاحبها، فاجتلب رواكبها، وهياً مسالكها، وحلق سفعها، فأطعمت عاماً فوجاً ثم عاماً فوجاً، ففعل آخرها طعماً يكون أجودها قنواناً، وأطولها شمراخاً، والذي بعثني بالحق ليجدن ابن مريم من أمتي خلفاً من حواريه» (٦٩).

وروى أيضاً برفعه إلى سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ:
«إن في أصلاب أصلاب رجال من أصحابي رجالاً ونساء يدخلون الجنة بغير حساب» (٧٠).

ثم تلا:

(٦٦) متفق عليه.

(٦٧) هو كتاب «ختم الأولياء» للحكيم الترمذي، وهو من الكتب التي كانت محل عناية كبرى من الشيخ أبي الحسن الشاذلي، ومن الشيخ أبي العباس المرسى وقد نال هذا الكتاب عناية الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، ووصلت عنايته به إلى درجة أنه تحدث عنه غير مرة، وأجاب عن الأسئلة التي وجهها الحكيم الترمذي في كتابه. وهذا الكتاب طبع في لبنان. (٦٨) رواه أحمد والترمذي والطبراني وأبو يعلى.

(٦٩) القنوان: جمع قنو وهو العذق أي النخلة بحملها، والشمراخ مثله.

ومن خبر غزوة مؤتة ما ذكره ابن حزم في «جوامع السيرة» من أن المسلمين عندما دخلوا قرية مؤتة جعل المسلمون على ميمنتهم قطية بن قتادة العذري. وعلى اليسرة عباية بن مالك الأنصاري. وقيل: عبادة. واقتتلوا فقتل الأمير الأول: زيد بن حارثة ملاقياً بصدرة الرماح، والراية في يده، فأخذها جعفر بن أبي طالب ونزل عن فرس شقراء... فقاتل حتى قطعت يمينه، فأخذ الراية بيسراه، فقطعت فاحتضنها، فقتل كذلك، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأخذ عبد الله بن رواحة الراية؛ وتردد عن النزول بعض التردد ثم صمم، فقاتل حتى قتل، فأخذ الراية ثابت بن أقرم أخو بني العجلان وقال: يا معشر المسلمين: اصطَلَحُوا على رجل منكم. فقالوا: أنت. قال: لا. فأخذها خالد بن الوليد، وانحاز بالمسلمين، فأنذر النبي ﷺ بقتل الأمراء المذكورين قبل ورود الخبر في يوم قتلهم بعينه أهد.

(٧٠) رواه ابن أبي حاتم في التفسير.

﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ (٧١).

وروى أيضا يرفعه إلى رسول الله ﷺ أنه قال:

«في كل قرن من أمتي سابقون» (٧٢).

واعلم، جعلك الله تعالى من خاصة عباده، وعرفك لطائف وداده، أنه سواء منهم الظاهر والخبى، والصديق والولى، فساد الوقت لا يكدر أنوارهم، ولا يحط مقدارهم؛ لأنهم مع المؤقت لا مع الأوقات، ومن كان مع المؤقت لا يتغير بتغير الوقت شيئا، ومن كان مع الوقت تغير بتغيره وتكدر بتكدره.

وقال الإمام أبو عبد الله الترمذى رضى الله عنه: الناس صنفان صنف منهم عمال الله يعبدونه على البر والتقوى فهم يحتاجون إلى خير الزمان وإقباله ودولة الحق؛ لأن تأييدهم من ذلك، وصنف منهم أهل اليقين فيعبدون الحق على وفاء التوحيد عن كشف الغطاء وقطع الأسباب فهم غير ملتقين إلى إقبال الزمان وإدباره ولا يغيرهم إدباره وهو قول النبى ﷺ:

إن لله عبادا يغذوهم برحمته، ينجيهم فى عافية، تمر بهم الفتن كقطع الليل المظلم لا تضرمهم.

وقوله ﷺ:

تكون فى أمتى فتن لا ينجو منها إلا من أحياه الله بالعلم.

قال الترمذى: يعنى: بالعلم بالله فيما نرى.

لقد سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: رجال الليل هم الرجال وإن أولياء هذا الوقت ليؤيدون بشيئين: بالغنى واليقين، فالغنى لكثرة ما عند الناس من الإفلاس، واليقين لكثرة ما عند الناس من الشكوك.

وقال بعض العارفين: إن لله عبادا كلما اشتدت ظلمة الوقت قويت أنوار قلوبهم، فهم كالكواكب، كلما قويت ظلمة الليل قوى إشراقها، وأين نور الكواكب من أنوار قلوب أوليائه، أنوار الكواكب تتكدر وأنوار قلوب أوليائه لا انكدار لها، وأنوار الكواكب تهدى فى الدنيا إلى الدنيا وأنوار قلوب أوليائه لا انكدار لها، وأنوار الكواكب تهدى فى الدنيا إلى الدنيا وأنوار قلوب أوليائه تهدى إلى الله تعالى، ولنا فى هذا المعنى:

أمرتقب النجوم من الساء	نجوم الأرض أهرُ فى الضياء
فتلك تنير وقتا ثم تخفى	وهذى لا تكدر بالخفاء
هداية تلك فى ظلم الليالى	هداية هذه كشف الغطاء

وقال صوفى يوما بحضرة فقيه: إن لله عبادا هم فى أوقات المحن والمحن لا تضرمهم، فقال ذلك

(٧١) الجمعة: ٣، ٤.

(٧٢) الأحاديث السابقة خرجها الترمذى فى كتابه «ختم الأولياء».

الفقيه: هذا مالا أفهمه، أنا أريك مثال ذلك، الملائكة الموكلون بالنار هم في النار والنار لا تضرهم (٧٣).

وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: الدنيا كالنار وهي قائلة للمؤمن: جز يا مؤمن، فقد أطفأ نورك لهبي.

واعلم أن شأن الولاية والوليَّ عظيم، والخطب فيها جسيم ويكفيك في ذلك ما حدثنا به الشيخ المسند الجليل شهاب الدين أبو المعالي أحمد بن إسحق بن محمد بن المؤيد البرقوهي رحمه الله، قال: أخبرنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن سابور القلانسي الشيرازي بها سنة تسع عشرة وستمئة، قال أخبرنا الإمام أبو المبارك عبد العزيز بن محمد بن منصور الشيرازي الأدمي قراءة عليه وأنا أسمع في سنة ثلاث وخمسمئة، قال حدثنا الشيخ الإمام أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد التميمي الحنبلي إماماً على في يوم السبت السادس عشر من صفر سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة بأصبهان، قال: أخبرنا أبو عمر عبد الواحد بن محمد بن عبد الله بن مهدي الفارسي حدثنا أبو عبدالله محمد بن محمد بن مخلد بن حفص العطار الخطيب الدورى حدثنا محمد بن عثمان بن كرامة حدثنا خالد بن مخلد عن سليمان بن بلال عن شريك بن أبي نمر عن عطاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله عز وجل قال: من عادى لي ولياً فقد آذنتي» (٧٤) بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه».

وهذا الحديث أخرجه البخاري رضي الله عنه في صحيحه. وقد روى هذا الحديث من طريق آخر: فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ولساناً وقلباً وعقلاً ويدا ومؤيداً.

فاصغ رحمك الله إلى ما تضمنه هذا الحديث من غزارة قدر الولي وفخامة رتبته، حتى ينزله الحق هذه المنزلة، ويحلّه هذه المرتبة، كقوله ﷺ حاكياً عن الله:

(٧٣) وإن القارئ للقرآن ليعلم ما ذكره القرآن الكريم عن قصة إبراهيم عليه السلام حينما قال قومه:

﴿حرقوه وانصروا آلهتكم﴾

ثم أنقوه في النار، فكان الأمر الإلهي:

﴿قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾

إن الله سبحانه وتعالى قد حفظه لأنه كان موالياً لله سبحانه وتعالى في أفعاله، ومن كان موالياً لله سبحانه وتعالى، كان متخذاً لله ولياً، ومن اتخذ الله ولياً وسار في حياته على ما أحبه الله سبحانه وتعالى، فإن الله يحفظه فتمر به الفتن لا تضره. ﴿أليس الله يكاف عبده؟﴾

(٧٤) رواية البخاري «فقد آذنته الحرب» وكلا الروايتين صحيح في المعنى إن من عادى ولي الله آذنته بالحرب، فأذنته الله

بالحرب - أعادنا الله من ذلك وعافانا.

«من عادى لي وليا فقد آذنتي بالحرب».

لأن الولي قد خرج عن تدبيره إلى تدبير الله، وعن انتصاره لنفسه لانتصار الله، وعن حوله وقوته بصدق التوكل على الله، وقد قال الله سبحانه:

﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ (٧٥).

وقد قال الله عز وجل: ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ (٧٦).

وكان ذلك لهم لأنهم جعلوا الله تعالى مكان همومهم، فدفع عنهم الأغيار (٧٧)، وقام لهم بوجود الانتصار.

أخبرني الشيخ شهاب الدين الأبرقوهي، قال: دخلت على الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه فسمعتة يقول: يقول الله عز وجل: «عبدى اجعلنى مكان همك أكفك كل همك، عبدى ماكنت لك فأنت في محل البعد، وما كنت بي فأنت في محل القرب واختر لنفسك».

وقد جاء في الحديث:

«من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» (٧٨).

فإذا كان الحق سبحانه قد رضى لهم أن يشغلهم ذكره عن مسألتهم، فكيف لا يرضى لهم أن يشغلهم ذكره والثناء عليه عن الانتصار لنفوسهم؟

ومن عرف الله سدَّ عليه باب الانتصار لنفسه (٧٩) إذ العارف قد اقتضت له معرفته أن لا يشهد فعلاً لغير معروفه، فكيف ينتصر من الخلق من يرى الله فعالاً فيهم؟ وكيف يدع أوليائه من نصرته وهم قد ألقوا نفوسهم بين يديه مسلمين ومستسلمين لما يريد منهم حكماً؟ فهم في معاقل عزه تحت سرادقات مجده، يصونهم من كل شيء إلا من ذكره، ويقطعهم عن كل شيء إلا عن حبه، ويحناهم من كل شيء إلا من وجود قربه، ألسنتهم بذكره لهجة، وقلوبهم بأنواره بهجة، وطن لهم وطناً بين يديه، فقلوبهم جائمة في حضرته، وأسرارهم محققة بشهود أحدىته.

ولقد سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول:

ولّى الله مع الله كولد اللبوة في حجرها، أتراها تاركة ولدها لمن أراد اغتياله؟

(٧٥) الطلاق: ٣.

(٧٦) الروم: ٤٧.

(٧٧) جمع «غير» بمعنى: سوى، أى كل ما سوى الله.

(٧٨) البخارى في التاريخ والبراز في المسند، والبيهقى في الشعب من حديث عمر بن الخطاب.

(٧٩) قال تعالى، ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها، فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾.

وقال: ﴿والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾.

وما كان الرسول ﷺ يغضب إلا لله.

وما يذكر أن المولى يقتدى برسول الله ﷺ في الانتصار لله سبحانه وتعالى، وما جوهر حياة المولى إلا الانتصار لله تعالى. ينتصر لله من نفسه، وينتصر لله في أسرته، وينتصر لله في مجتمعه، أنه يقوم بالمبدأ الإسلامى الواجب وهو: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد جاء في بعض الأحاديث أنه ﷺ كان في بعض غزواته وامرأة تطوف على ولدها رضيع، فلما وجدته أحنت عليه وألقتته الثدي، فنظر الصحابة إليها متعجبين، فقال ﷺ: «لله أرحم بعبده المؤمن من هذه» (٨٠) بولدها.

ومن هذه الرحمة برز انتصار الحق لهم ومحاربة من عاداهم؛ إذ هم حُمَلُ أسرارهم ومعادن أنوارهم. وقد قال الله سبحانه:

﴿الله ولي الذين آمنوا﴾ (٨١).

وقال: ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾ (٨٢).

غير أن مقابلة الحق سبحانه لمن آذى أوليائه ليس يلزم أن تكون معجلة؛ لقصر مدة الدنيا عند الله؛ ولأن الله لم يرض الدنيا أهلاً لعقوبة أعدائه كما لم يرضها أهلاً لإثابة أحبائه، وإن كانت معجلة فقد تكون قساوة في القلب، أو جهوداً في العين، أو تعويقاً عن طاعة الله، أو وقوعاً في ذنب، أو فترة في الهمة أو سلب لذاتة خدمته.

وقد كان رجل في بني إسرائيل أقبل على الله ثم أعرض عنه فقال: يارب كم أعصيك ولا تعاقبني، فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان أن قل لفلان: كم عاقبتك ولا تشعر؟ ألم أسلبك حلاوة ذكرى ولذاتة مناجاتي؟

وفائدة هذا البيان أن لا يحكم لإنسان آذى ولياً من أولياء الله بالسلامة، إذا لم تر عليه محنة في نفسه وماله وولده، فقد تكون محنته أكبر من أن يطلع العباد عليها.

وقوله ﷺ حاكياً عن الله عز وجل:

«وما تقرب إلى المتقربون بمثلي أداء ما افترضته عليهم».

فاعلم أن الفرائض التي اقتضاها الحق من عباده على قسمين: ظاهرة وباطنة، فالظاهرة: الصلوات الخمس، والزكاة، وصوم رمضان، والحج، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبرّ الوالدين، إلى غير ذلك.

والباطنة: العلم بالله، والحب له، والتوكل عليه، والثقة بوعده، والخوف منه، والرجاء فيه، إلى غير ذلك، وهي أيضاً تنقسم قسمين: أفعال وتروك، شيء اقتضى الحق منك أن تفعله، وشيء اقتضى الحق منك أن لا تفعله، وقد جمع ذلك في آية واحدة، قال الله سبحانه:

﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى﴾ (٨٣)

فهذا أمر طلب الله منك أن تفعله، ثم قال:

﴿ونهي عن الفحشاء والمنكر والبغى﴾ (٨٣).

(٨٠) رواه البخاري في الأدب، ومسلم في التوبة، وأبو داود في الجنائز وابن ماجه في الزهد.

(٨١) البقرة: ٢٥٧.

(٨٢) النحل: ٩٠.

(٨٣) الحج: ٣٨.

فهذا أمر يقتضى منك أن تتركه.

ثم اعلم رحمك الله أن الله لم يأمر العباد بشيء وجوباً أو يقتضيه منهم ندباً إلا والمصلحة لهم في فعل ذلك الأمر، ولم يقتض منهم ترك شيء تحريماً أو كراهةً إلا والمصلحة لهم في أمرهم بتركه وجوباً أو ندباً. ولسنا نقول كما قال من عدل به عن طريق الهدى: إنه يجب^(٨٤) على الله رعاية مصالح عباده. بل إنما نقول: ذلك عادة الحق وشرعته المستمرة، فعلها مع عباده على سبيل التفضل، فليت شعري إذا قالوا يجب على الله رعاية مصالح عباده فمن هو الموجب عليه؟

ثم إننا نظرنا فوجدنا كل مأمور به أو مندوب إليه يستلزم الجمع^(٨٥) على الله، وكل منهي عنه أو مكروه يتضمن التفرقة^(٨٦) عنه، فإذا مطلوب الله من عباده وجود الجمع عليه. لكن الطاعات هي أسباب الجمع ووسائله فلذلك أمر بها، والمعصية هي أسباب التفرقة ووسائلها فلذلك نهى عنها. وأما الفرائض الظاهرة فلا تنفك عن فروض باطنة، والفرائض الباطنة شروطها ومدة^(٨٧) لها، وبين الفرائض الظاهرة والباطنة ما بين الظاهر والباطن.

وأفهم ههنا قوله ﷺ:

«نية المؤمن خير من عمله»^(٨٨).

(٨٤) يشير بذلك إلى رأى المعتزلة.

(٨٥) الجمع ما كان من أقبل الحق من إبداء معاف، وإسداء لطف وإحسان (انظر الرسالة القشيرية). والجمع في كل معانيه يقصد به القرب من الله سبحانه وتعالى، وأثار القرب، من الله سبحانه وتعالى لا حدود له، ذلك أن كمال الله سبحانه وتعالى لا يتناهى، ويكون معنى القرب من الله سبحانه وتعالى: زيادة كمال، وزيادة الكمال من آثار زيادة الإيمان، وكلما زادت استقامة الإنسان زاد إيمانه، فزاد بذلك كماله، وزاد قربه من الله سبحانه وتعالى، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أكثر من مرة في كتابه الكريم زيادة الإيمان، وتحدث سبحانه عن أهل اليمين، وعن الأبرار، وعن المقرئين، والمقرَّبون هم قمة أهل الإيمان، ودونهم الأبرار في المنزلة، وأهل اليمين ناجون وكلهم فضلاء يتفاوتون في الفضل بحسب سهمهم في طاعة الله والخضوع له. والتفرقة: هي البعد عن الله سبحانه وتعالى بالمعاصي، وهي بعد عن الكمال، ونقص في الإيمان.

(٨٦) أى رؤية الكسب من إقامة العبودية وما يليق بأحوال البشرية.

(٨٧) أى معينة عليها.

(٨٨) رواه القضاعى في مسند الشهاب، وابن عساكر في أماليه وقال غريب والطبرانى في المعجم الكبير: قال الهيثمى: رجاله موثقون إلا حاتم بن عباد بن دينار لم أر من ذكر له ترجمة، وقال المناوى: له عدة طرق تجوز ضعفه، وإنما كانت نية المؤمن خيراً من عمله.

لأن تخليد الله العبد في الجنة ليس بعمله، وإنما هو لنيته؛ لأنه لو كان بعمله كان خلوده فيها بقدر مدة عمله، أو أضعافه، لكنه جازاه بنيته؛ لأنه كان نواوياً أن يطيع الله أبداً، فلما اخترمته منيته جوزى بنيته، وكذا الكافر لأنه لو جوزى بعمله لم يستحق التخليد في النار إلا بقدر مدة كفره ولأنه نوى الإقامة على كفره أبداً لو بقى فجوزى بنيته. ذكره بعضهم. وقال الكرمانى: المراد أن النية خير من العمل بلا نية؛ إذ لو كان المراد خير من عمل مع نية لزم كون الشيء خيراً من نفسه مع غيره، أو المراد أن الجزء الذى هو النية خير من الجزء الذى هو العمل؛ لاستحالة دخول الرياء فيها، أو أن النية خير من جملة الخيرات الواقعة بعمله، أو أن النية فعل القلب، وفعل الأشرف أشرف، أو لأن القصد من الطاعة تنوير القلب، وتنويره بها أكثر لأنها صفته.

وقال البعض: إنما قال النبي ﷺ ذلك؛ لأن النية عبودية القلب والعمل عبودية الجوارح وعمل القلب أبلغ وأنفع، وهو أمير، والجوارح رعية، وعمل الملك أعظم وأبلغ، ولأن العمل يدخل تحت الحصر، والنية لا، إذ المتحقق في إيمانه عقد نيته على أن يطيع الله ما أحياه، ولو أماته ثم أحياه، وثم ثم، وهذا اعتقاد منبر مستدام، فيرتب له من الجزاء على نيته ما لا يترتب له على عمله.

وكذلك الذنوب الباطنة صغائرها وكبائرها أشد من الذنوب الظاهرة، صغيرها من صغيرها وكبيرها من كبيرها، ولما كانت الفرائض اقتضاها الحق من عبده اقتضاء إلزام حتمه عليه لم يدخل العبد فيها إلا باختيار الله له، فاندفع هوى العبد فيها؛ لأن الله سبحانه وقت أعدادها وأمادها وأسبابها، فلما كان كذلك كان قيام العبد فيها مقتطعا عن اختياره لنفسه، راجعا إلى اختياره الله له، فأوجبت من القرب إلى الله ما لم يوجبه غيرها فلذلك قال: «ما تقرب إلى المتقربون بمثل أداء ما افترضته عليهم».

ثم قال: وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه. فاعلم أن النوافل هي الزيادة؛ ولذلك سمي النفل نفلا، وهو ما ينقله الإمام لمن يراه: زائدا على نصيبه من الغنيمة، وقال الله سبحانه: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾ (٨٩).

= وقال بعضهم: معناه، أن المؤمن كلما عمل خيرا نوى أن يعمل ما هو خير منه، فليس لنيته في الخير منتهى، والفاجر كلما عمل شرا نوى أن يعمل ما هو شر منه، فليس لنيته في الشر منتهى.

وقال بعضهم في حديث آخر: من نوى حسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر حسنات، فالعمل في هذا الحديث خير من النية، وليس ذلك مرادا للحديث الأول، وإنما تكون النية خيرا من العمل في حال دون حال. وقال بعض شراح مسلم: أفاد هذا الخبر أن الثواب المترتب على الصلاة أكثر للنية وباقية لغيرها من قيام وغيره. وفي رواية: «نية المؤمن أبلغ من عمله» لما تقرر؛ ولأن المؤمن في عمل ونيته عند فراغه لعمل ثان، ولأن النية بانفرداها توصل إلى ما لا يوصله العمل بانفرداها، ولأنها هي التي تقلب العمل الصالح فاسدا، والفاقد صالحا، مثابا عليه، ويثاب عليها أضعاف ما يثاب على العمل، ويعاقب عليها أضعاف ما يعاقب عليه، فكانت أبلغ وأنفع.

وقيل: إذا فسدت النية وقعت البلية. ومن الناس من تكون نيته وهيته أجل من الدنيا وما عليها، وآخر نيته وهيته من أخس نية وهمة، فالنية تبلغ بصاحبها في الخير والشر ما لا يبلغه عمله، فأين نية من طلب العلم وعلمه ليصل الله عليه وملائكته وتستغفر له دواب البر وحيتان البحر إلى نية من طلبه لما أكل أو وظيفة كندريس؟ وسبحان الله كم بين من يريد بعلمه وجه الله والنظر إليه وسماع كلامه وتسليمه عليه في جنة عدن، وبين من يطلب حظا خسيسا كندريس أو غيره من العرض الفاني.

قال الحكيم: والنية نهوض القلب إلى الله، وبدوها خاطر ثم المشيئة، ثم الإرادة ثم النهوض؛ ثم اللجوء إلى الله تعالى مرتعلا بعقله وعمله وذهنه وهيته وعزمه فمن هنا تتم النية؛ ومنه يخرج إلى الأركان فيظهر على الجوارح فعله، وإذا صغ العزم خرج الرياء والفخر والخيلاء من جميع أعماله وبلغ مقام الأقوياء؛ وأما غير الكامل فصدوره مرج (بستان) من المروج ملتنف فيه من النبات ما إذا تغطي فيه لا يكاد يستبين موضع قدمه أين يضعها من كثرة النفاق؛ فهذا صدر فيه أشغال النفس وفنونها وسواس شهواتها فمن أين يأتي التور؟

وإنما يستتير قلب أجرد أزهر في صدره فسح قد شرحه الله للإسلام فهو على نور من ربه (رطب بذكر الله ورحمته) وصلب بآلاء الله.

والناس في هذه النية على طبقات: أما نية العامة فارتعاهم إلى الله بهذا العلم والعقل والذهن والهمة والعزم؛ فمبلغ ارتعاهم المحو، ثم ليس لقلوبهم من القوة ما يرتحلون به فيطرون لأنه لا ريش لقلوبهم والمحو مسدود لأن القلوب لما مالت إلى النفوس وإطاعتها أفسد طريقها إلى ربه.

وأما العارفون فنياتهم صارت كلها نية واحدة لأن القلب ارتحل إلى الله ووجد الطريق إليه فمر والقلب أمير والنفس أسير، أه فيض القدير ج ٦ ص ٢٩٢.

أى زيادة لك من فضلنا على ما اقتضته الفرائض لك.
واعلم أن الحق سبحانه لم يوجب شيئاً من الواجبات غالباً إلاّ وجعل من جنسه نافلة حتى إذا قام العبد بذلك الواجب وفيه خلل ما جبر بالنافلة التي هي من جنسه؛ ولذلك جاء في الحديث: أنه ينظر في صلاة العبد فإن قام بها كما أمره الله جوزى عليها وأُثبتت له وإن كان فيها خلل أكملت من نافلته» (٩٠) حتى قال أهل العلم: إنما تثبت لك نافلة إذا سلمت لك الفريضة. ولما علم الله سبحانه أن في عباده المؤمنين أقوياء وضعفاء كما جاء في الحديث: «المؤمن القوى أحبّ إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف» أو قال: «خير من المؤمن الضعيف» وفي كل خير (٩١).

ففسّح الله على الضعفاء بالاكْتفاء بالواجبات، وفتح للأقوياء باب نوافل الخيرات، فعباد أنهضهم إلى القيام بالواجبات خوف عقوبته، فقاموا بها تخليصاً لأنفسهم من وجود الهلكة وملاقاة العقوبة، فما قاموا لله شوقاً له ولا طلباً بربوبيته، فلو قبلوا بالمحاققة لم يقبل منهم قيامهم هذا، فإنهم لم ينهضوا إلاّ لأجل نفوسهم ولم يطلبوا إلاّ حظوظهم، فقاموا بواجبات الله مجرورين بسلاسل الإيجاب؛ لذلك جاء في الحديث: «عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل» (٩٢).

وأما العباد الآخرون فعندهم من غليان الشغف ووجود الحب ما ليس تكفيهم الواجبات، بل قلوبهم متلفتة إلى الله من عوائق هذه الدار، فلو لما يحجر عليهم التنفل بالصلاة في أوقات النهى لسر مدوا الأوقات بها، ولحمّلوا أنفسهم فوق ما يطيقون.

ومما يدل على أن الناس انقسموا على هذين القسمين أن رسول الله ﷺ قال في حديث: «بادروا بالأعمال سبعاً، هل ينتظر أحدكم إلاّ غنى مطعياً، أو فقراً منسياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرمًا مقنّداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمر» (٩٣).

فهذا الحديث يقتضى إناهض الهمم إلى معاملة الله سبحانه وتعالى، والحث على المبادرة إلى طاعته، ومسابقة العوارض والقواطع قبل ورودها، فهذا خطاب الفريق الأوّل فطالبهم الرسول ﷺ بالمبادرة بالأعمال، وجاءت أحاديث أخر أمرة للعباد بالاعتقاد في الطاعة لئلاّ يطيعوا باعث الشغف فيحملون أنفسهم فوق ما يطيقون فيؤدى ذلك إلى عجزهم عن طاعة الله أو قيامهم فيها بوجود التكلف، فقال ﷺ:

(٩٠) رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم عن تميم الدارى بنحوه وصححه السيوطى.
(٩١) رواه مسلم ونصّه: المؤمن القوى خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت كذا، كان كذا، وكذا ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان.

(٩٢) رواه أحمد والبخارى وأبو داود.

(٩٣) رواه الترمذى والحاكم وصححه.

«أكلفوا من العمل ما تطيقون فو الله لا يَلَّ الله حتى تَمَلُّوا» (٩٤).

وقال: القصد القصد تبلغوا (٩٥).

وقوله: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق» (٩٦).

وقوله ﷺ «ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله».

ومثل القائم بالواجبات المكتفى بها والقائم بها وبالنوافل معها كمثّل عبيدين خارجيهما (٩٧) الملك على أربعة دراهم كل يوم فأما أحدهما فقام بها ولم يزد، وأما الآخر فقام بها وعمد إلى طرف الفواكه وغرائب التحف فاشتراها وأهداها إلى السيد، فهو لا شك أولى بوّد السيد من العبد الآخر. وقوله: فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به الحديث إلى آخره. المعنى به: وجود البقاء بعد الفناء فتمحى أوصافك وتطوى بظهور أوصاف المولى فيك. وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول:

إن لله عباداً محو أفعالهم بأفعالهم وأوصافهم بأوصافهم وذواتهم بذواته وحملهم من أسرارهم ما يعجز عامة الأولياء عن سماعه، وهم الذين غرقوا في بحر الذات وتيار الصفات، فهي إذاً فناءات ثلاث أن يفتيك عن أفعالك بأفعاله، وعن أوصافك بأوصافه، وعن ذاتك بذاته، ولذا قال قائلهم:

وقوم تاهوا في أرض بقفر وقوم تاهوا في ميدان حبه
فأفنوا ثم أفنوا ثم أفنوا وأبقوا بالبقا من قرب قرهه

فإذا أفنك عنك أبقاك به، فالفناء دهلز البقاء، ومنه يدخل إليه، فمن صدق فنائه صدق بقاؤه، ومن كان عبداً سوى الله فنائه كان بالله بقاؤه، ولذلك قالوا: من كان في الله تلفه كان على الله خلفه، فالفناء يوجب عذرهم، والبقاء يوجب نصرهم، الفناء يوجب غيبتهم عن كل شيء، والبقاء يحضرهم مع الله في كل شيء فلا ينقطعون عنه بشيء، الفناء يبيتهم، والبقاء يحييهم، ومن دكت جبال وجوده استمع داعي شهوده، قال الله سبحانه:

﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً، فيذرها قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً﴾ (٩٨).

(٩٤) رواه أحمد وأبو داود والنسائي ورواه الشيخان بنحوه.

(٩٥) رواه البخاري.

(٩٦) رواه أحمد عن أنس وصححه.

(٩٧) أطلقها ليعمل حزين على أن يؤدّي إليه أربعة دراهم كل يوم.

(٩٨) طه: ١٠٥ - ١٠٨ وما يذكر هنا أنه قد أشار القوم بالفناء: إلى سقوط الأوصاف المذمومة.

وأشاروا بالبقاء: إلى قيام الأوصاف المحمودة به.

وإذا كان العبد لا يخلو عن أحد هذين القسمين، فمن المعلوم: أنه إذا لم يكن أحد القسمين كان القسم الآخر لا محالة، فمن فنى عن أوصافه المذمومة ظهرت عليه الصفات المحمودة، ومن غلبت عليه الحاصل المذمومة استترت عنه الصفات المحمودة.

وصاحب البقاء يقوم عن الله، وصاحب الفناء يقوم الله عنه.

وقوله: وما ترددت في شيء أنا فاعله أكثر من ترددي في قبض روح عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه.

اعلم أن التردد يجب تأويله ولا يحمل على ظاهره، وإنما التردد في المخلوقين: إما لتقابل الجواذب، وإما لانبهام العواقب وذلك محال في حق الله سبحانه، وإنما المراد بالتردد ههنا: أن سابق علم الله يقتضى وفاة العبد في الوقت الذى سبق العلم بتعيينه، وصفة الرأفة تقتضى دفع ذلك لولا ما سبق العلم، وقد أشار الحق سبحانه إلى صفة الرأفة بقوله: يكره الموت وأكره مساءته، وأشار إلى صفة العلم بقوله: ولا بد له منه.

انعطاف:

واعلم رحمك الله بإقباله عليك وجعل أنواره واصله إليك، أنها ولايتان: ولى يتولى الله، وولى يتولاه الله، وقد قال الله عز وجل في الولاية الأولى:

﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ (٩٩).

وقال في الولاية الثانية:

﴿وهو يتولى الصالحين﴾ (١٠٠).

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: من أجل مواهب الله الرضا بمواقع القضاء، والصبر عند نزول البلاء، والتوكل على الله عند الشدائد، والرجوع إليه عند النوائب.

فمن خرجت له هذه الأربع من خزان الأعمال على بساط المجاهدة، ومتابعة السنة، والاقتراء بالأئمة، فقد صحت ولايته لله ولرسوله وللمؤمنين، ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون.

ومن خرجت له من خزان المنن على بساط المحبة، فقد تمت ولاية الله له بقوله: ﴿وهو يتولى الصالحين﴾.

ففرق بين الولايتين: فعبد يتولى الله، وعبد يتولاه الله فهما ولايتان: صغرى وكبرى، فولایتك لله خرجت من المجاهدة، وولايتك لرسوله خرجت من متابعتك لسنته، وولايتك للمؤمنين خرجت من الاقتراء بالأئمة، فافهم ذلك من قوله: ﴿ومن يتول الله ورسوله... الآية﴾.

واعلم رحمك الله بورود عواطفه (١٠١)، وفهمك لطائف عوارفه: أن الصلاح الذى فى قوله عز وجل:

﴿وهو يتولى الصالحين﴾.

(٩٩) المائدة: ٥٦.

(١٠١) أى: بمنحه وعطاياه.

(١٠٠) الأعراف: ١٩٦.

ليس مرادًا به الصلاح الذى يقصده أهل الطريق عند تفصيل المراتب، فيقولون فلان صالح وشهيد وولى، بل الصلاح هنا المراد به: الذين صلّحوا لحضرته بتحقيق الفناء عن خليقته، ألم تسمع قول الله سبحانه حاكبًا عن يوسف عليه السلام.

﴿توفى مسلماً وألحقنى بالصالحين﴾.

أراد بالصالحين هنا المرسلين من آبائه، لأن الله أهلهم لنبوته ورسالته، فكانوا لها أهلاً. وإن شئت قلت هما ولايتان: ولاية الإيمان، وولاية الإيقان، فولاية الإيمان قول الله سبحانه: ﴿الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ (١٠٢).

وفى هذه الآية فوائد:

الفائدة الأولى: اختصاص اسم الله بالذكر فى هذا الموطن دون ما سواه من الأسماء فقال الله سبحانه:

﴿الله ولى الذين آمنوا﴾.

ولم يقل: الرحمن، ولا القهار، ولا غير ذلك من الأسماء التى تتضمن الأوصاف؛ لأنه أراد أن يعرفك شمول ولايته لعباده المؤمنين من الاسم الجامع لجميع الأسماء فلو ذكر اسماً من أسماء الأوصاف لكانت الولاية من حيثية ذلك الاسم.

الفائدة الثانية: ربط الولاية بالإيمان: ليعرفك عزة قدر الإيمان وعلو منصبه حتى كان سبباً لثبوت ولاية الله للعبد، ولا يفهم من هذه الآية اختصاص الولاية بمن وقع منه الإيمان قبل نزول هذا الخطاب لإتيانه بصيغة الماضى، بل المراد أن من قام به الإيمان وجبت ولاية الله له أى وقت كان ذلك الإيمان، وقد تساق الأفعال على صيغة خاصة وليس المراد خصوص تلك الصيغة، كما تقول قد أفلح من آمن وخاب من كفر، ألا ترى أن المراد بالأول: قد أفلح من كان منه إيمان، وقد خاب من كان منه كفر من غير تعرض لزمن معين.

الفائدة الثالثة: دلّ سبحانه بقوله: يخرجهم من الظلمات إلى النور على وسع رحمته وسبوغ نعمته: إذ لما قال:

﴿الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾.

علم أنهم قد يدخلون فى الظلمات، ولكن الله لولايته إياهم يتولى إخراجهم، كما قال فى الآية الأخرى:

﴿والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾.

فساق ذلك مساق المدح للمؤمنين، كما ساق قوله: يخرجهم من الظلمات إلى النور، مساق

البسالة لهم، ولم يقل: والذين لا يفعلون الفاحشة: إذ لو قال ذلك لم يدخل فيه إلا أهل الاعتناء الأكبر.

وكذلك قوله:

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (١٠٣).

وكذلك قوله: ﴿وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظِ﴾ (١٠٤).

فمدحهم بالمغفرة بعد الغضب، ولم يقل: والذين لا يغضبون، فيصفهم بفقدان الغضب أصلاً؛ إذ البشرية التي هم متصفون بها لا تقتضى ذلك.

الفائدة الرابعة: إعلام الحق سبحانه في هذه الآية المؤمنين ببشارة عظيمة تتضمنها ولايته؛ لأنها تضمنت كل خير من خيور (١٠٥) الدنيا والآخرة، من: نور وعلم، وفتح وشهود، ومغفرة ويقين، وتأيد ووجود مزيد، وحور وقصور، وأنهار وثمار، ورؤية الله، ورضى عن الله، ومن الله، وما بين ذلك من الحشر مع المتقين، وأخذ الكتاب باليمين، وثقل ميزان الحسنات، والتثبيت على الصراط وما سوى ذلك من المنح والمواهب التي تضمنتها ولاية الله لعباده المؤمنين، فهي البشارة التي تضمنت كل بشارة.

واعلم أن ولاية الله تتضمن النفع والدفع.

أما النفع فمن قوله:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ (١٠٦).

ومن قوله: ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعِهِمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ (١٠٧).

وفي هذه وصف الكافرين، فمفهومه أن الإيمان ينفع المؤمنين ولو عند رؤية البأس، وكذلك قوله:

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ (١٠٨).

فمفهومه إذا كانت مؤمنة من قبل نفعها (١٠٩) بإيمانها.

وأما الدفع فمن قوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (١١٠).

وتتضمن النصر لقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١١).

وتتضمن النجاة لقوله:

﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١٢).

(١٠٨) الأنعام: ١٥٨.

(١٠٩) أى انتفاعها بإيمانها.

(١١٠) الحج: ٣٨.

(١١١) الروم: ٤٧.

(١١٢) الأنبياء: ٨٨.

(١٠٣) الشورى: ٣٧.

(١٠٤) آل عمران: ١٣٤.

(١٠٥) جمع خير.

(١٠٦) يونس: ٩٨.

(١٠٧) غافر: ٨٥.

الفائدة الخامسة: قوله:

﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

أى يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

ومن ظلمات البدعة إلى نور السنّة.

ومن ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة.

ومن ظلمات الحظوظ إلى نور الحقوق.

ومن ظلمات طلب الدنيا إلى نور طلب الآخرة.

ومن ظلمات المعصية إلى نور الطاعة.

ومن ظلمات الكثائف إلى نور اللطائف.

ومن ظلمات الهوى إلى نور التقوى.

ومن ظلمات الدعوى إلى إشراق نور التبرى من الحول والقوى.

ومن ظلمات الكون إلى شهود المكوّن.

ومن ظلمات التدبير إلى إشراق نور التفويض.

إلى غير ذلك مما لا يحصره العدّ مما يخرجهم منه ويخرجهم إليه.

الولاية الثانية: ولاية الإيقان، وهى تتضمن الإيمان والتوكّل، وقد قال الله سبحانه:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (١١٣).

ولا يكون التوكّل إلّا مع اليقين، ولا يكون يقين وتوكّل إلّا مع إيمان؛ لأنّ اليقين عبارة عن

استقرار العلم بالله فى القلب، مأخوذ من يقن الماء فى الجبل إذا سكن فيه، فكل يقين إيمان، وليس كل إيمان يقيناً.

والفرق بينهما أن الإيمان قد تكون معه الغفلة، واليقين لا تجامعه الغفلة.

وإن شئت قلت هما ولايتان: ولاية الصادقين، وولاية الصديقين.

فولاية الصادقين بإخلاص العمل لله، والقيام بالوفاء مع الله، طلباً للجزاء من الله.

وولاية الصديقين بالفناء عما سوى الله، والبقاء فى كل شىء بالله. وقد قال الشيخ أبو الحسن

رضى الله عنه: فى بعض كتب الله المنزلة على أنبيائه، «قال الله: «من أطاعنى فى كل شىء أعطته فى كل شىء»!.

فقال الشيخ أبو الحسن: (من أطاعنى فى كل شىء بهجرانه لكل شىء) أعطته فى كل شىء بأن أنجّلى له فى كل شىء حتى يرانى أقرب إليه من كل شىء، هذه طريق أولى، وهى طريق السالكين،

وطريق كبرى: من أطاعنى فى كل شىء بإقباله على كل شىء لحسن إرادة مولاه فى كل شىء،
أطعته فى كل شىء، بأن أتجلى له فى كل شىء، حتى يرانى كأنى عين كل شىء.

وإذ قد عرفت هذا فاعلم أنها وليان: ولئى يغنى عن كل شىء فلا يشهد مع الله شيئاً، ولئى يبقى
فى كل شىء فيشهد الله فى كل شىء، وهذا أتم؛ لأن الله سبحانه لم يظهر المملكة إلا كى يشهد فيها،
فالكائنات مرايا الصفات، فمن غاب عن الكون غاب عن شهود الحق فيه، فما نصبت الكائنات
لترأها ولكن لترى فيها مولاه، فمراد الحق منك أن ترأها بعين من لا يراها: ترأها من حيث
ظهوره فيها، ولا ترأها من حيث كونيتها. ولنا فى هذا المعنى.

ما أبينت لك العوالم إلا لترأها بعين من لا يراها
فأرق عنها رقى من ليس يرضى حالة دون أن يرى مولاه

فالنظر للكائنات غير شاهد للحق فيها غافل، والفانى عنها عبد بسطوات الشهود ذاهل،
والشاهد للحق فيها عبد مخصص كامل. وإنما ترفع الهمة عن الكون من حيث كونيته لا من حيث
ظهور الحق فيه، وذلك: لعدم نفوذهم إليه فى كل شىء لا لعدم ظهوره فى كل شىء، فإنه ظاهر فى
كل شىء حتى إنه ظاهر فيها به احتجب فلا حجاب. ولنا فى هذا المعنى:

أرى الكل محتجباً وأنت لك الغنى
وأنت الذى تبدى الوداد تكرماً
وما طاب عيش لم تكن فيه واصلأ
عزمت على أن أترك الكون كله
شهودك يجلو والحجاب لأنه
وما أحسن الأحياب فى كل حالة
وإن الأولى لم يشهدوك بمشهد
وأنت الذى أظهرت ثم ظهرت فى
ظهرت لكل الكون فالكون مظهر
فأبى فؤاد عن وداك ينشئ
وأبى نفس لم يملها هواك
ومثل من يخطى ومثلك من يغفو
ومثلك من يرعى ومثل من يجفو
ولم يصف - لا والله - أنى له يصفو
وأقفو سبيل الحب والمجتبى يقفو
إذا حقق التحقيق صار هو الكشف
فلله ما يبدو والله ما يخفو
قلوبهم عن نيل سر الهوى غلف (١١٤)
جميع المبادئ مثل ما شهد العرف
وفيه له أيضاً كما جاءت الصحف
وأبى عين بعد قربك لى تغفو
على حبكم طراً نفوس الورى وقف

وإن شئت قلت هما ولايتان: ولاية دليل وبرهان، وولاية شهود وعيان. ولاية الدليل والبرهان
لأهل الاعتبار، وولاية الشهود والعيان لأهل الاستبصار. فلأهل الولاية الأولى قوله سبحانه:

﴿سُتَرِمْ آيَاتِنَا فى الْآفَاقِ وَفى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (١١٥).

ولأهل الولاية الثانية:

﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ دَرَّهْمَ فى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (١١٦)

(١١٤) أى مغطاة عن الحق.

(١١٥) فصلت: ٥٣.

(١١٦) الأنعام: ٩١.

وأرباب الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان؛ لأن أهل الشهود والعيان قدسوا الحق في ظهوره أن يحتاج إلى دليل يدل عليه، وكيف يحتاج إلى الدليل من نصب الدليل؟ وكيف يكون معروفًا به وهو المعروف له؟

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف؟ أم كيف يعرف بشيء من سبق وجوده وجود كل شيء؟
وقال مريد لشيخه: يا أستاذ، أين الله؟ فقال: أسحقتك الله، أتطلب مع العين «أين». وأنشد بعض العارفين:

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد إلا على أكمه لا يبصر القمر
ثم استترت عن الأبصار يا صمد فكيف يُعرف من بالعة استترا
فما احتجب الحق عن العباد إلا بعظيم ظهوره، ولا منع الأبصار أن تشهد إلا قهارية نوره، فعظيم القرب هو الذى غيب عنك شهود القرب.

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:
حقيقة القرب أن تغيب فى القرب عن القرب لعظيم القرب، كمن يشم رائحة المسك فلا يزال يدنو منها، وكلما دنا منها تزايد ريحها، فلما دخل البيت الذى هو فيه انقطعت رائحته عنه. وأنشد بعض العارفين:

كم ذا تموه بالشعبين والعلم والأمر أوضح من نار على علم
أراك تسأل عن نجد وأنت بها وعن تهامة هذا فعل متهم
ووجدت بخط شيخنا أبي العباس رضى الله عنه:

أعندك من ليلي حديث محرر بإيراده يحيى الرميم وينشر
فعهدى بها العهد القديم وإننى على كل حال فى هواها مقصر
وقد كان منها الطيف قدماً يزورنى ولما يزر ما باله يتعذر
فهل بخلت حتى بطيف خيالها أم اعتلّ حتى لا يصحّ التصوّر
ومن وجه ليلي طلعة الشمس تستضى وفى الشمس أبصار الورى تحير
وما احتجبت إلا برفع حجابها ومن عجبى أن الظهور تستر

واعلم أن الأدلة إنما نصبت لمن يطلب الحق لا لمن يشهده: فإن الشاهد غنى بوضوح الشهود عن أن يحتاج إلى دليل، فتكون المعرفة باعتبار توصيل الوسائل إليها كسبية ثم تعود فى نهايتها ضرورة.

وإذا كان من الكائنات ما هو غنى بوضوحه عن إقامة دليل، فالمكوّن أولى بغناه عن الدليل منها.

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:
إنّا ننظر إلى الله ببصائر الإيمان والإيقان، فأغنانا ذلك عن الدليل والبرهان وإنّا لا نرى أحداً

من الخلق، هل في الوجود أحد سوى الملك الحق؟ وإن كان ولا بدّ فكالهباء في الهواء إن فتشته لم تجده شيئاً.

ومن أعجب العجب أن تكون الكائنات موصلة إليه، فليت شعري هل لها وجود معه حتى توصل إليه، أو هل له من الوضوح ما ليس له حتى تكون هي المظهرة له.

وإن كانت الكائنات موصلة إليه، فليس ذلك لها من حيث ذاتها، ولكن هو الذي ولّاها رتبة التوصيل فوصلت، فما وصل إليه غير إلهيته، ولكن الحكيم هو واضع الأسباب وهي لمن وقف عندها ولم يتفد إلى قدرته عين الحجاب، وقد قال الراوي: أصبح رسول الله ﷺ في أثر سحابة كانت من الليل، فقال:

أتدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال ربكم: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال مطرنا بنجم كذا أو بنوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب.

رواه مالك في موطئه (١١٧)، فلا بدّ من الأسباب وجوداً ولا بدّ من الغيبة عنها شهوداً. وكيف تكون الكائنات مظهرة له وهو الذي أظهرها أو معرفة له وهو الذي عرفها. فإن قلت: فقد جاء في الحديث: من عرف نفسه عرف ربه فهذا يدل على أن معرفة النفس موصلة إلى معرفة الله وهي كَوْن من الأكوان ففيه إثبات توصيل الكائنات إليه.

فاعلم أني سمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: في هذا الحديث تأويلان: أحدهما: أي من عرف نفسه بذلّه وعجزها وفقرها عرف الله بعزّه وقدرته وغناه فتكون معرفة النفس أولاً ثم معرفة الله من بعد.

والتأويل الثاني: من عرف نفسه عرف ربه، أي من عرف نفسه فقد دلّ ذلك منه على أنه عرف الله من قبل، فالأول حال السالكين والثاني حال المجذوبين.

واعلم بسط الله لك بساط منته وجعلك من أهل حضرته أن الله سبحانه إذا تولى ولياً صان قلبه من الأغيار، وحرسه بدوام الأنوار، حتى لقد قال بعض العارفين: إذا كان الحق سبحانه قد حرس السماء بالكواكب والشهب كيلا يسترق السمع منها، فقلب المؤمن أولى بذلك لقول الله سبحانه فيما يحكيه عنه رسول الله ﷺ: «لم تسعني أرضي ولا سمائي ويسعني قلب عبدي المؤمن» (١١٨).

فانظر رحمك الله هذا الأمر الأكبر الذي أعطيه هذا القلب حتى صار لهذه الرتبة أهلاً. ولقد قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: لو كشف عن نور المؤمن العاصي لطبق ما بين السماء والأرض فما ظنك بنور المؤمن المطيع.

ولقد سمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: لو كشف عن حقيقة الولي لَعَبَدَ لأن

(١١٧) ورواه البخاري ومسلم.

(١١٨) لعل أصل هذا الحديث ما رواه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني من قول النبي ﷺ: إن لله آنية من أهل لأرض، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين.

أوصافه من أوصاف ونعوته من نعوت، ولقد أخبرني بعض المريدين قال: صَلَّيت خلف شيخى صلاةً فشهدت ما أهر عقلى، وذلك أنى شهدت بدن الشيخ والأنوار قد ملأته، وانبثت الأنوار من وجوده حتى أننى لم أستطيع النظر إليه، فلو كشف الحق عن مشرقات أنوار قلوب أوليائه لانطوى نور الشمس والقمر في مشرقات أنوار قلوبهم، وأين نور الشمس والقمر من أنوارهم؟ الشمس يطرأ عليها الكسوف والغروب، وأنوار قلوب أوليائه لا كسوف لها ولا غروب؛ ولذلك قال قائلهم:

إن شمس النهار تغرب بالليل بل وشمس القلوب ليست تغيب
ونور الشمس يُشهد به الآثار ونور اليقين يُشهد به المؤثر.

ولنا في هذا المعنى:

هذه الشمس قابلتنا بنور وَلَشَّمْسُ اليقين أهر نوراً
فرأينا بهذه النور لكنا بهاتيك قد رأينا المنيرا

لكن الحق سبحانه يوفى أعيان الكائنات حقها، ويعطيها قسطها، فيقدر لكن كَوْن رتبته، ويوفيه دولته، فلذلك ستر سرَّ الخصوصية في وجود البشرية، ولا بد للشمس من سحب وللحسنة من نقاب، وهل يكون الكنز إلا مدفوناً والسر إلا مصوناً؟ وضع ذلك سبحانه ليكون سرَّ الولاية غيباً، فيكون المؤمن به مؤمناً به مؤمناً بالغيب، وأيضاً أجل ولايته أن يُظهره في دار لابقاء لها فأرخصي عليه ذيل الستر حتى إذا كانت الدار الآخرة التي رضيها أهلاً لظهوره واقتربه ووجود كشف حجابها، كذلك يكشف الحجاب هنالك عن سرَّ الولاية ويَجَلُّ مقداره ويرفع مناره (١١٩).

(١١٩) حين بدأ الرسول ﷺ المجر بدعوته، بعد نحو ثلاث سنوات من الإصرار بها؛ فإنه صلوات الله وسلامه عليه لم يبدأ بإثبات وجود الله، وإنما بدأ بالبرهنة على صدقه هو، وتحدى العرب بصدقه! ومن قبل ذلك حين فاجأه الملك في الغار، ونزل الوحي لم يبدأ الملك أو لم يبدأ الوحي بإثبات وجود الله، وإنما بدأ بالأمر بأن يقرأ الرسول صلوات الله وسلامه عليه باسم ربه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. ومضى القرن الأول كله، ولم يحاول إنسان قط أن يتحدث حديثاً عابراً أو مستفيضاً عن إثبات وجود الله - تعالى - ومضى أكثر القرن الثاني والمسألة - فيما يتعلق بوجود الله - لا توضع موضع البحث. ذلك أن وجود الله: إنما هو أمر بدهى لا ينبغي أن يتحدث فيه المؤمنون نفيًا أو إثباتًا، ولا سلبًا أو إيجابًا! إن وجود الله من القضايا المسلمة التي لا توضع في الأوساط الدينية موضع البحث لأنها فطرية: وإن كل شخص يحاول وضعها موضع البحث إنما هو شخص في إيمانه دخل. وفي دينه انحراف، فما خفى الله قط حتى يحتاج إلى أن يشته البشر، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ومن المعروف أن الدين الإسلامى لم يجيء لإثبات وجود الله، وإنما جاء لتوحيد الله. وإذا تصفحت القرآن أو التوراة - حتى على وضعها الحال - أو الإنجيل - حتى في وضعه الراهن؛ فإنك لا تجد أن مسألة وجود الله قد اتخذت في أى سفر منها مكانة تجعلها هدفاً من الأهداف الدينية، أو احتلت مكاناً يشعر بأنها من مقاصد الرسالة السماوية.

والقرآن الكريم: يتحدث عن بدهة وجود الله حتى عند ذوى العقائد المنحرفة يقول سبحانه: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ إنهم يقولون: إن الخالق هو الله. مع أنهم مشركون أو منحرفون بوجه من الوجوه في إيمانهم بالله تعالى، وما نزلت الأديان قط لإثبات وجود الله، وإنما نزلت لتصحيح الاعتقاد في الله، أو لتصحيح طريق الوحيد.

أما الآيات الكثيرة التي يظن بعض الناس أنها نزلت لإثبات الوجود، فليست من ذلك في قليل ولا في كثير، إنها تبين عظمة الله وجلاله وكبريائه، وهيمنتته الكاملة على العالم، ما عظم من أمره ودق منه، لا تفوت هيمنتته صغيرة ولا كبيرة، ولا يخرج عن =

فاعلم رحمك الله أن من أراد الله به أن يكون داعياً إليه من أوليائه، فلا بد من إظهاره للعباد إذ

= سلطانه ما دق وما جلّ.

وقد أتت على هذا الوضع لتفرد الإنسان إلى إسلام وجهه لله إسلاماً كاملاً بحيث لا يصدر ولا يرد إلا باسمه سبحانه، ولا يأتي ما يأتي أو يدع ما يدع إلا في سبيله تعالى.

ومضى القرن الأول على ذلك، ومضى القرن الثاني - أو أكثره - على الفطرة ثم كانت الفلسفة اليونانية. والفلسفة اليونانية فلسفة وثنية؛ لأنها تصدر عن العقل لا عن الوحي. وكل فكرة تصدر عن العقل لا عن الوحي في عالم ما وراء الطبيعة، أى في عالم العقيدة إنما هي فكرة وثنية، أى أنها فكرة لا حق لها في الوجود؛ لأن عالم العقيدة إنما هو من اختصاص الله، يبيته على لسان رسله، وكل تدخل من الإنسان في هذا العالم، إنما هو تدخل فيها ليس للإنسان التدخل فيه؛ لأنه افتحام لساحة محرمة مقدسة لا ينبغي أن يدخلها الإنسان إلا دخول الساجد الخاشع الخاضع المسلم لما جاء به الوحي الإلهي. إن الفلسفة اليونانية في عالم العقيدة: فلسفة وثنية؛ إنها وثنية حتى حين تثبت وجود الله، ولا يخرجها إثباتها وجود الله عن أن تكون وثنية، إنها وثنية بالمبدأ الذي قامت عليه، وهو مبدأ تأليه العقل البشري. ويستوى بعد ذلك أن تكون قد أثبتت وجود الله أو أنكرته.

وهي حينما تثبت وجود الله عقلياً ليس في ذلك كبير فائدة، ولا يبرر ذلك وجودها، ولا قيمة لما تثبتته، وإثباتها والعدم سواء؛ ذلك أن العقل الذي أثبت هو العقل الذي يمكنه أن ينكر، وهو العقل الذي ينكر بالفعل. ولا لزوم إذن للطبقة والتصفيق الذي نحى به كل عبقرية فكرية في الشرق أو في الغرب تحاول فكراً أن تثبت وجود الله. إننا لا نقيم عقيدتنا على فكر بشري مهما كان هذا الفكر عبقرياً. ويجب على المؤمن أن يقيم وزناً - أى وزن - لأتى نتاج فكرى في عالم ما وراء الطبيعة سواء خالف معتقده أو وافقه، إنه في معتقده يدين لله وحده، وكفى بالله مصدراً، وكفى بالله هادياً، وكفى بالله مرشداً ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم، ومن يعتصم بالله فهو حسبه.

إن كل ما عدا الهدى الإلهي في عالم الدين إنما هو وثنية وضلال. كانت الفلسفة اليونانية فلسفة وثنية بشرية، وقد أرادت أن تجد لجأها بعصمها من الخطأ فاخترت فناً وثنياً آخر، هو فن المنطق، فما أبدى ولا أغنى، ولا تقدم بالفكر الوثني في عالم الصواب شروى تغير! وبقيت هذه الفلسفة الوثنية - عبر القرون - على ما هي عليه، فيها كل سمات الوثنية من ضلال وخرافات. ولقد كانت الأمة اليونانية معذورة بعض العذر، فما كان في ربوعها، دين منزل من السماء تلجأ إليه مهتدية مسترشدة، وما كان مثلها في ذلك إلا كمثل العصر الجاهل في الجزيرة العربية: فلجأت إلى العقل وأهله، وأخذت تثبت به وتنكر فضلت وأحسّت. جاءت الديانة النصرانية مصححة للوضع، فمزلت فكرة الألوهية من تدنيس الوثنية، وسمت بالله جلّ جلاله عن أن تضع وجوده موضع البحث ثم تسَلَّت إليها - كمكروب خبيث - وثنية اليونان، فجعلت من وجود الله - بمجرد وجود الله باباً ضخماً من أبواب البحث أو من أبواب اللاهوت الكسسى. ونزلت بذلك الفكر الدينية المقدسة عن الله إلى مستوى الجو الوثني البشري! وجاء الإسلام تطهيراً كاملاً للعقيدة، وتزكية نائمة للإيمان، وأعلن بمجرد التسمية: «الإسلام» الحرب على التدخل البشري في دين الله ورسالته، فما جاء الإسلام إلا للاستسلام المطلق لله سبحانه وتعالى، إنه الاسترسال مع الله على ما يرضيه، وهل للإنسان غير هذا بالنسبة لله؟ وهل للمؤمن أن يتصرف تصرفاً آخر؟ وهل إذا تصرف تصرفاً آخر سُمي مؤمناً؟ إن الاسترسال مع الله على ما يجب هو الإسلام، وهو الدين لا دين غيره، يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.

ويقول سبحانه:

﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾.

وإن كل من لا يستسلم لله في وحيه استسلاماً مطلقاً، فإنه يبتغى - في قليل أو في كثير حسب انحرافه - غير الإسلام ديناً. ولقد كان الإسلام توجيهاً، وكان مبادئ!

ومن توجيه الإسلام: أن وجود الله لا ينبغي أن يوضع موضع البحث، وكل من وضعه موضع البحث: فإنه بذلك يعدل عن توجيه الله تعالى إلى توجيه بشري. إنه يبتغى غير الإسلام موجهاً!

ولقد ابتغى المسلمون الأول الإسلام توجيهها كما ابتغوه مبادئ، وسار الأمر على ذلك إلى أن تسللت الفلسفة اليونانية - =

لا يكون الدعاء إلى الله إلا كذلك، ثم لا بد أن يكسوه الحق سبحانه كسوتين: الجلالة، والبهاء.

= كمكروب خبيث - إلى الجور الإسلامي، تسلك في عهد المأمون، وتولى كبر هذا التسلسل المأمون، وشجعه على ذلك معتزلة عصره، وقابل المؤمنون ذلك بكثير من النفور، وحق لهم ذلك، فما كان منطق الدين ولا منطق الفطرة السليمة يقضى بأن تكون راية العصمة، راية الدين الإلهي مرفوعة ترفرف على ربوع الأمة الإسلامية في محيط العقيدة: فنميل هذه الراية قليلاً أو كثيراً لنرفع بجوارها راية أرسطو أو راية أبيقور.

ورفع المأمون راية الانحراف الوثنية بجوار راية الهداية المعصومة وعارض المؤمنون واحتجوا وبينوا أن الوثنية ولو وافقت الدين فهي وثنية.

ولكن النهج الوثني أخذ يقوى شيئاً فشيئاً، ثم طلب التصريح بالإقامة واستوطن! ومعاذ الله أن تكون عقائد الإسلام الكبرى - الإيمان بالله وبالرسالة وبالبعث - قد تلوثت بالوثنية!

كلّا، وإلّا الذي تلوث بالوثنية - وإلى حد كبير - إلّا هو النهج والنزعة والاتجاه في البحث ومنهج البحث وليس ذلك بالأمر الهين أو الذي لا يؤبه له، كلّا! - فذلك له خطورته في جانب قوة الإيمان وضعفه.

وفرّق بين أن تأخذ قضاي الوحي مأخذ المستسلم المسترسل معها على ما تريد، وأن تأخذها بحكمك فيها عقلك مؤولاً لها أو عادلاً بها إلى اتجاه خاص، أو شارحاً لها على نزعة معينة.

وبتعبير آخر: فرق بين أن تصدر عن الوحي متفهماً له بعقلك، وبين أن تصدر عن عقلك متفهماً للوحي.

ولعل بعض الناس لا يرى فرقاً في التعبيرين، ولكن الفرق كبير إذا نظرنا إلى الوضع الإنساني: فهو إما أن ينطلق عن الوحي قائداً العقل إلى الخضوع له، وإما أن ينطلق عن العقل محاولاً تأويل الوحي بما يوافق النتائج التي وصل إليها العقل، والأول طريق المؤمنين المسلمين، والثاني طريق الفلاسفة أو نهج الوثنيين. والنهج الوثني - نهج إثبات وجود الله عقلياً - هو الذي أتاح الانحراف الكامل أي إنكار وجود الله، فعادام النهج الوثني قد أعطى حقّ الوجود، فإن الوثنية - كمنهج - تأتي بالوثنية كنتائج!

إن وضع مسألة وجود الله موضع البحث. هو الذي هيأ لذوي الفطر المتحرّفة أن يلحدوا في دين الله، وأن يكفروا به سبحانه..! هذه نتيجة!

أما النتيجة الثانية فإنها ضعف الإيمان، وإذا كنت تضع الوجود الإلهي - مجرد الوجود - موضع بحث، فمعنى ذلك أنك وضعت موضع شك وريبة، ولو لم يكن كذلك لما وضع موضع البحث.

وإذا كان الوجود الإلهي - مجرد الوجود - موضع شك وريبة فعماذا بقي من أمور الدين لا يوضع موضع شك وريبة؟! إن الإيمان في هذه الأوضاع الوثنية لا يتأقّى له إلا أن يخبو شيئاً فشيئاً حتى يصبح كلاً إيماناً!

وهذا هو ما حدث لبعض الأفراد في الأمة الإسلامية!

لقد وصل إيمانهم إلى درجة يشبه أن يكون معدوماً، وما ذلك إلا لتغلغل النهج الوثني في بحث قضايا الدين ومبادئه.

لقد أصبحت قضايا الدين - كلّ قضاياها - موضع بحث وهل يتأقّى أن تبقى قضية من قضايا الدين في مجال اليقين بعد أن وضع وجود الله - مجرد وجوده سبحانه - موضع البحث؟ نستغفرك اللهم وتوب إليك! ونعود فنقول: إن الدين في نفسه محفوظ بحفظ الله لكتابه العزيز.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

ولكن الذي نشكو منه إلّا هو: النهج، أو المنهج أو النزعة، أو الاتجاه في البحث.

إن الذي نشكو منه إلّا هو :

منهج البحث الوثني: وإن شئت قلت: إلّا هو منهج البحث اليوناني. سئل أحد العارفين عن الدليل على الله فقال: الله! فقبل له: فما العقل؟ فقال: العقل عاجز لا يدلّ إلا على عاجز مثله!

أما الإمام الكبير العارف بالله ابن عطاء الله السكندري الذي جمع بين رئاسة الشريعة ورئاسة الحقيقة فإنه يقول:

إلهي: كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟

أيكون لفريق من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء»؟! =

أما الجلالة فليعظمه العباد فيقفوا على حدود الأدب معه، ويضع له في قلوب العباد هبة يبصره بها؛ ليكون إذا أمر ونهى مسموعاً أمره ونهيه، وجعل هذه الهبة في قلوب العباد من تمكين الحق له ليعينه على القيام له بالنصرة. قال الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (١٢٠).

وهي من إظهار إعزاز الحق لعباده المؤمنين، قال الله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ الْعَزَّةَ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢١).

وهذه الهبة التي جعلها الحق في قلوب العباد لأوليائه سرت إليهم لا نبط جاه المتبوع عليهم، ألم تسمع قوله ﷺ: نصرت بالرعب مسيرة شهر (١٢٢)؟ ألبسهم الحق ملابس هيئته، وأظهر عليهم إجلال عظمتهم، كلما نزلوا إلى أرض العبودية رفعهم إلى سماء الخصوصية، فهم الملوك وإن لم تحقق عليهم البنود (١٢٣) والأعزاء وإن لم تسر أمامهم الجنود.

والله در القائل في مالك بن أنس رضى الله عنه:

يَأْبَى الْجَوَابَ فَمَا يُرَاجَعُ هَبِيَّةً وَالسَّائِلُونَ نَوَاسِ الْأَذْقَانِ
أَدَبُ الْوَقَارِ وَعَزَّ سُلْطَانُ التَّقَى فَهُوَ الْمَطَاعُ وَلَيْسَ ذَا سُلْطَانِ

ومن ملَّكه الله أمر نفسه وهواه فقد آتاه الله الملك، قال الله تعالى:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ (١٢٤).

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول:

قال ملك من الملوك لبعض العارفين تَمَنَّى عَلَى.

فقال له ذلك العارف: إِلَى تَقُولِ وَلِي عَبْدَانِ قَدْ مَلَكَتُهُمَا وَمَلَكَكَ وَقَهْرُتُهُمَا وَقَهْرَاكَ وَهَمَا الشَّهْوَةُ

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء»؟

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء»؟

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء»؟

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء»؟

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء»؟

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء»؟

«كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ما كان وجود شيء»؟

«شأن بين من يستدل عليه، المستدل به عرف الحق لأهله فأثبت الأمر من وجود أصله، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه، وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه، ومتى بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه»؟

(١٢٠) الحج: ٤٦.

(١٢١) المنافقون: ٨.

(١٢٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتَّيْمِيُّ.

(١٢٣) أَيْ تَرَفَّرَ الرَّايَاتِ.

(١٢٤) آل عمران: ٢٦ - وما ذكره المؤلف رضى الله عنه هو بعض ما تشير إليه الآية الكريمة وهي عامة، فهي تشمل الملك في الآفاق - كل الآفاق - وفي الأنفس، أنه سبحانه المالك للسموات والأرض وما بين السموات والأرض، وهو سبحانه المملك ما يشاء لمن يشاء، ومع تملكه ما يشاء لمن يشاء فهو المالك الدائم لكل ما خلق ويخلق.

والحرص؟ فأنت عبد عبدى. فكيف أتمنى على عبد عبدى؟!

الكسوة الثانية التى يكسوها الحق سبحانه لأوليائه إذا أظهرهم: كسوة البهاء، وذلك ليحليهم فى قلوب عباده فينظرون إليهم بعين الألفة والمحبة، فيكون ذلك باعثاً لهم على الانقياد إليهم، أفلا ترى كيف قال الله سبحانه فى شأن موسى عليه السلام:

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ (١٢٥).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (١٢٦). فحلاهم بحلية الهيبة ليحبهم العباد فيجرهم حبهم إلى حب الله، والحب فى الله يوجب المحبة من الله، لقوله ﷺ حاكياً عن الله: (وجبت محبتى للمتحابين فى) (١٢٧).

وهى مراتب أربع: الحب لله، والحب فى الله، والحب بالله، والحب من الله. الحب لله ابتداءً، والحب من الله انتهاءً، والحب فى الله وبالله واسطة بينهما.

الحب لله هو أن تؤثره ولا تؤثر عليه سواء (١٢٨)، والحب فى الله أن تحب فيه من والاه، والحب بالله أن يحب العبد من أحبه وما أحبه منقطعاً عن نفسه وهواه، والحب من الله هو أن يأخذك من كل شىء فلا تحب إلا إياه.

وعلاوة الحب لله دوام ذكره مع الحضور، وعلاوة الحب فى الله أن تحب من لم يحسن إليك بدنياه من أهل الطاعة والخير، وعلاوة الحب بالله أن يكون باعث الحظ بنور الله مقهوراً، وعلاوة الحب من الله أن يجذبك إليه فيجعل ما سواه عنك مستوراً.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

من أحب الله وأحب لله فقد تمت ولايته بالحب.

والمحبة على الحقيقة من لا سلطان على قلبه لغير محبوبه، ولا مشيئة له غير مشيئته: فإذا من ثبتت ولايته من الله لا يكره الموت، ويعلم ذلك من قوله تعالى:

﴿قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٢٩).

فإذا الولي على الحقيقة لا يكره الموت إن عرض عليه.

وقد أحب الله من لا محبوب له سواء، وأحب له من لا يحب شيئاً لهواه، وأحب لقاءه من ذاق أنس مولاه.

(١٢٥) طه: ٣٩.

(١٢٦) مريم: ٩٦.

(١٢٧) قال النووي: حديث صحيح رواه مالك فى الموطأ.

(١٢٨) يقول الله سبحانه:

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾.

(١٢٩) الجمعة: ٦.

وَيَتَمَحَّضُ لَكَ الْحُبُّ لَهُ فِي عَشْرَةِ فَاعْتَبِرْهَا فِيهَا وَرَاءَهَا:

فِي الرَّسُولِ ﷺ (١٣٠)، وَالصَّدِيقِ، وَالْفَارُوقِ وَالصَّحَابَةِ، وَالتَّابِعِينَ، وَالْأَوْلِيَاءَ وَالْعُلَمَاءَ الْهَدَاةَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالشَّهَدَاءَ، وَالصَّالِحِينَ، وَالْمُؤْمِنِينَ.

فَإِذَا افْتَرَقَ الْأَمْرُ بَعْدَ الْإِيمَانِ إِلَى عَشْرَةِ أَشْيَاءَ: إِلَى السَّنَةِ وَالْبَدْعَةِ وَالْهَدَايَةِ وَالضَّلَالَةِ، وَالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَالْعَدْلَ وَالْجَوْرَ، وَالْحَقَّ وَالْبَاطِلَ، وَمِيزَتَ وَأَحْبَبْتَ وَأَبْغَضْتَ فَأَحَبَّ لَهُ، وَأَبْغَضَ لَهُ، وَلَسْتَ تَبَالِي بَأَيِّهَا كُنْتَ، وَقَدْ يَجْتَمِعُ لَكَ الْوَصْفَانِ فِي شَخْصٍ وَاحِدٍ، وَيَجِبُ عَلَيْكَ الْقِيَامُ بِحَقِّهَا جَمِيعًا، فَإِذَا قَدْ بَانَ لَكَ الْحُبُّ لِلَّهِ فِي الْعَشْرَةِ الْأُولَى، فَانْظُرْ هَلْ تَرَى لِلْهَوَىٰ هُنَاكَ أَثْرًا، فَكَذَلِكَ فَاعْتَبِرْ حُبَّ مَنْ حَضَرَ مِنْ إِخْوَانِكَ الصَّادِقِينَ، وَالْمَشَائِخِ الصَّالِحِينَ، وَالْعُلَمَاءِ الْمُهْتَدِينَ، وَسَائِرَ مَنْ حَضَرَ وَمَنْ لَمْ يَحْضَرْ مِمَّنْ غَابَ عَنْكَ أَوْ مَاتَ، فَإِنْ وَجَدْتَ قَلْبَكَ لَا مَتَعْلَقَ لَهُ بِمَنْ حَضَرَ كَمَا لَا مَتَعْلَقَ لَهُ بِمَنْ غَابَ عَنْكَ أَوْ مَاتَ فَقَدْ خَلَصَ الْحُبُّ مِنَ الْهَوَىٰ وَثَبَتَ الْحُبُّ لِلَّهِ، وَإِنْ وَجَدْتَ شَيْئًا يَتَعَلَّقُ بِهِ فَيَمْنُ تَحِبُّ أَوْ فِيهَا تَحِبُّ فَارْجِعْ إِلَى الْعِلْمِ وَأَتَقِنِ النَّظَرَ فِي الْأَقْسَامِ الْخَمْسَةِ مِنَ الْوَاجِبِ وَالْمَنْدُوبِ إِلَيْهِ وَالْمَكْرُوهِ وَالْمَحْظُورِ وَالْمُبَاحِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ قَوْلَ الشَّيْخِ: «مَنْ ثَبَتَ وَلَايَتَهُ لَا يَكْرَهُ الْمَوْتَ» هَذَا مِيزَانٌ أَعْطَاهُ لِلْمُرِيدِينَ لِيُزَنُوا بِهِ نَفُوسُهُمْ إِذَا ادَّعَى فِيهِمْ أَوْ ادَّعَا وَلَايَةَ اللَّهِ، فَإِنْ مِنْ شَأْنِ النَّفُوسِ وَجُودِ الدَّعَاوَى وَالتَّوَسُّبِ إِلَى الْمَرَاتِبِ الْعَالِيَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْلُكَ السَّبِيلَ الْمُوَصِّلَةَ إِلَيْهَا؛ وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٣١).

وَقَالَ هُنَا: ﴿فَتَمَنُّوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٣٢).

وَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ لِحَارِثَةَ: «لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ؟» لَمَّا قَالَ لِحَارِثَةَ: «كَيْفَ أَصْبَحْتُ؟» فَقَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا حَقًّا، وَلَا يَجِبُ الْمَوْتُ مِنْ فِيهِ الْبَقَايَا، وَلَا مِنْ هُوَ مُصْرٌ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْخَطَايَا.

وَجَعَلَ اللَّهُ تَمَنَّى الْمَوْتَ شَاهِدًا لِلْوَلِيِّ بِوَلَايَتِهِ، وَعَدَمَ تَمَنِّيهِ شَاهِدًا لِلْغَوَىٰ بِغَوَايَتِهِ.

وَقُلْ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ (١٣٣).

وَالْمَوْتُ مِيزَانٌ عَلَى الْأَفْعَالِ وَالْأَحْوَالِ، كَمَا هُوَ مِيزَانٌ فِي دَائِرَةِ الرَّتَبِ أَمَّا الرَّتَبُ فَكَمَا تَقْدِمُ، وَأَمَّا الْأَفْعَالُ وَالْأَحْوَالُ فَإِذَا التَّبَسَّ عَلَيْكَ أَمْرٌ أَنْتَ فِيهِ لَا تَدْرِي: هَلْ رَضِيَ اللَّهُ فِي تَرْكِهِ أَوْ فَعْلِهِ أَوْ

(١٣٠) يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَلَقَدْ قَالَ سَيِّدُنَا عَمْرٌو لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ:

وَاللَّهِ لَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا نَفْسِي. فَقَالَ: لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ.

فَقَالَ عَمْرٌو: فَأَنْتَ الْآنَ وَاللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ: الْآنَ يَا عَمْرُو.

(١٣١) النمل: ٦٤.

(١٣٢) الجمعة: ٦.

(١٣٣) الرحمن: ٩.

حالة أنت بها لا تدري: هل قمت فيها بحق أو قمت فيها بهوى، فأورد الموت على ما أنت فيه من أفعال وأحوال فكل حالة وعمل يثبت مع تقدير ورود الموت عليها ولم تنهزم فهي حق، وكل حالة وعمل هزمها الموت فهي باطل إذ الموت حق والحق يهزم الباطل وبدمغه لقول الله عز وجل:

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (١٣٤).

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَـمُ الْغُيُوبِ﴾ (١٣٥).

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (١٣٦).

وما كنت فيه قائماً بحق لم يهزمه الموت إذ هو حق، والموت حق، والحق لا يهزم الحق. وقد تجاريت الكلام أنا وبعض من يشتغل بالعلم في أنه ينبغي إخلاص النية فيه، وأنه لا يشتغل به إلا الله، فقلت له: الذي يقرأ العلم لله هو الذي إذا قلت له غداً تموت لم يضع الكتاب من يده.

وربما غر الغافل من طلبه العلم قول من قال: «طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله»، وليس في قول هذا القائل ما يستروح به من طلب العلم للرئاسة والمنافسة، وإنما أخبر هذا القائل عن أمر من به عليه، وفتنة سلمه الله منها، لا يلزم أن يقاس عليه فيها غيره وذلك بمثابة من به مرض مزمن في المعنى أعياه علاجه وضاق منه خلقه فأخذ خنجرًا وضرب به مراق بطنه ليقتل نفسه فصادف ذلك المعنى فقطعه فخرج الداء منه، فهذا لا يستصوب العقله فعله وإن نجحت عاقبته، وليست سلامة العواقب رافعة للعتب عن الملقين أنفسهم للتهلكة.

«ليس المغر بمحمود وإن سلما».

وقول الشيخ رضى الله عنه: «وقد أحب الله من لا محبوب له سواه» فهو كلام يستدعى معرفة المحبة وما هي؟

اعلم أن المحبة هي من أجل مقامات اليقين، حتى اختلف أهل الله أيها أتم: مقام المحبة أو مقام الرضا؟

وإن كان الذى نقول به: إن مقام الرضا أتم؛ لأن المحبة ربما حكم سلطانها على المحب، وقوى عليه وجود الشغف، فأداه ذلك إلى طلب شهود ما لا يليق بمقامه، ألا ترى أن المحب يريد دوام شهود الحبيب، والراضى عن الله راضى عنه أشهده أم حجه؟ والمحب يحب دوام الوصلة، والراضى عن الله راضى عنه وصله أو قطعه إذ ليس هو مع ما يريد لنفسه، بل إنما هو مع ما يريد الله له، المحب طالب لدوام مراسلة الحبيب والراضى لا طلب له.

ولنا في هذا المعنى:

وكنتم قديماً أطلب الوصل منهم فلما أتانى العلم وارتفع الجهل
تيقنت أن العبد لا طلباً له فإن قربوا فضل وإن بعدوا عدل

(١٣٤) الأنبياء: ١٨.

(١٣٥) سبأ: ٤٨.

(١٣٦) الإسراء: ٨١.

وإن أظهروا لم يظهروا غير وصفهم وإن ستروا فالستر من أجلهم يحلو
وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

المحبة أخذه من الله لقلب عبده عن كل شيء سواه، فترى النفس مائلة لطاعته، والعقل
متحصناً بمعرفته، والروح مأخوذة في حضرته، والسر مغموراً في مشاهدته، والعبد يستزيد فيزاد،
ويفتاح بما هو أعذب من لذية مناجاته، فيكسى حلل التقريب على بساط القرية، ويمس أبكار
الحقائق وثيبات العلوم، فمن أجل ذلك قالوا:

أولياء الله عرائس ولا يرى العرائس المجرمون.
قال له القائل: قد علمت الحب.

فما شراب الحب؟

وما كأس الحب؟

ومن الساقى؟

وما الذوق؟

وما الشراب؟

وما الرى؟

وما السكر؟

وما الصحو؟

قال: الشراب هو النور الساطع عن جمال المحبوب.
والكأس هو اللطف الموصل ذلك إلى أفواه القلوب.

والساقى هو المتولى الأكبر للمخصوصين من أوليائه والصالحين من عباده وهو الله العالم بالمقادير
ومصالح أحبائه، فمن كشف له عن ذلك الجمال وحظى منه بشيء نفساً أو نفسين، ثم أرخى عليه
الحجاب فهو الذائق المشتاق.

ومن دام له ذلك ساعة أو ساعتين فهو الشارب حقاً.

ومن توالى عليه الأمر ودام له الشرب حتى امتلأت عروقه ومفاصله من أنوار الله المخزونة فذلك
هو الرى.

وربما غاب عن المحسوس والمعقول. فلا يدري ما يقال، ولا مايقول: فذاك هو السكر.
وقد تدور عليهم الكئوس وتختلف لديهم الحالات، فيردون إلى الذكر والطاعات، ولا يحبون
عن الصفات، ومع تزامم المقدورات فذلك وقت صحوهم، واتساع نظرهم، ومزيد علمهم.

فهم بنجوم العلم وقمر التوحيد يهتدون في ليلهم.

وبشموس المعارف يستضيئون في نهارهم.

﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ (١٣٧).

قال الشيخ القطب عبد السلام بن مشيش شيخ الشيخ أبي الحسن رضى الله عنها:
الزم الطهارة من الشرك، كلما أحدثت تطهرت من دنس حب الدنيا، كلما ملت إلى شهوة
أصلحت بالتوبة ما أفسدت بالهوى أو كدت.

وعليك بحبة الله على التوقير والنزاهة، وأدمن الشرب بكأسها مع السكر والصحو، كلما أفقت
أو تيقظت شربت، حتى يكورك وصحوك به، وحتى تغيب بجماله، عن المحبة، وعن الشراب
والشرب والكأس بما يبدو لك من نور جماله وقدر كمال جلاله.

ولعلّ أحدث من لا يعرف المحبة ولا الشراب ولا الشرب ولا الكأس ولا السكر ولا الصحو.
قال له القائل: أجل، وكم من غريق في شيء لا يعرف بغرقه، فعرفني ونبهنى عما أجهل أو لما
من به على وأنا عنه غافل.

قلت لك: نعم المحبة آخذة من الله تعالى قلب من أحب بما يكشف له من نور جماله وقدر
كمال جلاله.

وشراب المحبة مزج الأوصاف بالأوصاف والأخلاق بالأخلاق والأنوار بالأنوار والأسماء
بالأسماء والنوعت بالنوعت والأفعال بالأفعال ويتسع فيه النظر لمن شاء الله عز وجل.
والشرب سقى القلوب والأوصال والعروق من هذا الشراب حتى يسكر، ويكون الشرب
بالتدريب بعد التدويب والتهذيب فيسقى كل على قدره.

فمنهم من يسقى بغير واسطة، والله سبحانه يتولى ذلك منه له.

ومنهم من يسقى من جهة الوسائط كالملائكة والعلماء والأكابر من المقربين.

فمنهم من يسكر بشهود الكأس ولم يذق بعد شيئاً، فما ظنك بعد بالذوق، وبعد بالشرب، وبعد
بالرى، وبعد بالسكر والمشروب.

ثم الصحو بعد ذلك على مقادير شتى كما أن السكر أيضاً كذلك.

والكأس مغرفة الحق يغرف بها من ذلك الشراب الطهور المحض الصافي لمن شاء من عباده
المخصوصين من خلقه، فتارة يشهد الشارب تلك الكأس صورة، وتارة يشهدا معنوية، وتارة
يشهدا علمية، فالصورة حفظ الأبدان والأنفس، والمعنوية حفظ القلوب والعقول، والعلمية حفظ
الأرواح والأسرار.

فيا له من شراب ما أعذبه، فطوبى لمن شرب منه، ودوام عليه، ولم يقطع عنه.

نسأل الله من فضله: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ (١٣٨).

وقد يجتمع جماعة من المحبين فيسقون من كأس واحدة، وقد يسقون من كؤوس كثيرة، وقد
يسقى الواحد بكأس وكؤوس، وقد تختلف الأشربة بحسب عدد الكؤوس، وقد يختلف الشرب من

كأس واحدة وإن شرب منه الجيم الغفير من الأحبة (١٣٩).

(١٣٩) لقد خلق بنا المؤلف في موضوع المحبة في صورة أسمى ما تكون العواطف، والواقع أن المحبة «صراط الأولياء» على حدّ تعبير الشبلي.

إنها صراطهم الدائم، حين يصلون إليها تلهج بها ألسنتهم، وتقتل بها قلوبهم إلى آخر نفس من حياتهم. والناس في العواطف درجات: فمنهم سلطان المحبين، ومنهم سلطان العاشقين. ومهما جح بالإنسان أمر الحب، ومهما كان سلطانه فإنه في الأوضاع الشرعية التي التزمها الصوفية له شروط، وله علامات لن يتأتى أن يكون الحب بدونها. يقول الله تعالى في حديث قدسي: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحبّ إلى مما افترضه عليه. وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذته». وفي هذا الحديث الشريف يبدأ الله سبحانه بالتوجيه في قوة إلى صفاء القلب وطهارة النية بالنسبة لأوليائه.. وأوليائه هم: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

ومن عاداهم فإنما يعادى: المؤمن التقى.

ونتيجة هذه العداوة ما يقوله الله تعالى:

«آذنته بالحرب».

ثم يرسم الله سبحانه الطريق إلى حبه، وأول خطوة في هذا الطريق:

«أداء ما افترضه عليك»

ولن يتأتى حب الله سبحانه دون الشرط الأول: شرط القرب منه سبحانه وهو أداء الفرائض.

والحب دون أداء الفرائض زيف وكذب، بل إن أداء الفرائض شرط لحسن الظن بالله.

لقد ترك قوم العمل وقالوا: نحن نحسن الظن بالله - وكذبوا كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل»!

لا بدّ من أداء الفرائض، وإلا لما كان لمهلها إلى القرب من الله تعالى من سبقي ومع أداء الفرائض - في وجوب القرب -

الإكثار من النوافل. فإذا أكثر من النوافل أحبه الله:

«وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه»!

ويترتب على حبّ الله تعالى للعبد هذا الخير الكثير الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي.

ويربط أسلافنا - رضوان الله عليهم - ربطاً محكماً بين محبة الله سبحانه وأتباع رسول الله ﷺ. متناسقين في ذلك مع توجيه

الله سبحانه:

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾

وهذا الربط معناه: الربط بين محبة الله تعالى والعمل.

ومقدمات محبة الله تعالى - في توفيقه - هي العمل، ومن نتائج محبة الله سبحانه: العمل.

يقول الإمام أبو سعيد الخراز:

«بلغنا عن الحسن البصري رضي الله عنه أن ناساً قالوا - على عهد رسول الله ﷺ:

«يا رسول الله، إنا نحب ربنا حباً شديداً» فجعل الله تعالى لمحبيته علماً وأنزل عزّ وجل:

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾

فمن صدق المحبة اتباع رسول الله ﷺ في هديه وزهده وأخلاقه والتأسي به في الأمور كلها، والإعراض عن الدنيا وزهرتها

وبهجتها، فإن الله عزّ وجل جعل محمداً عليه الصلاة والسلام علماً ودليلاً وحجة على أمته. ومن صدق المحبة لله تعالى إثار محبة الله

عزّ وجل في جميع الأمور على نفسك وهواك، وأن تبدأ في الأمور كلها بأمره قبل أمر نفسك.

ويقول:

«علامة المحب الموافقة للمحبوب، والتجاري مع طرقاته في كل الأمور، والتقرب إليه بكل حيلة، والهرب من كل ما لا يعينه

=

على مذهبه.

انعطاف:

ثم اعلم فتح الله بصيرتك لشهود أنواره، ووالى عليك ورود معارفه وأسراره، أن من أجل مواهب الله لأوليائه وجود العبارة.

= أما عن صلة المحبة بالإيمان فإن الإمام الغزالي يقول:

وقد جعل رسول الله ﷺ الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة إذ قال أبو زين العقيلي: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

وفي حديث آخر:

«لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين»

وفي رواية: «ومن نفسه».

كيف وقد قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا. وَمَا كُنْ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ. وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

وإنما أجرى ذلك في معرض التهديد والإنكار... اهـ.

ومن أجل تعبيرات المحبين عن شعورهم ما يقوله يحيى بن معاذ: إلهي إني مقيم بفنائك، مشغول بفنائك، صغيراً أخذتني إليك. وسرلتي بمعرفتك، وأمكنتني من لطفك، ونقلتي في الأحوال وقلبتني في الأعمال: سترًا وتوبةً، وزهدًا وشوقًا، ورضا وحُبًا، تسقيني من حياضك، وتعلمني في رياضك، ملازمًا لأمرك، ومشغوفًا بقولك... ولما طرَّ شاربي، ولاح طائرني، فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرًا، وقد اعتدت هذا منك صغيرًا، فلي ما بقيت حولك ذئنة، وبالضراعة إليك هممة، لأنني محبٌ، وكل محبٌ بحبيبه شغوف، وعن غير حبيبه مصروف.

وبعد:

فإن ثمرة محبة الله تعالى هي ما قاله سبحانه عن أوليائه:

﴿لَهُمُ الْبَشَرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وهي أيضًا أن يجد حلاوة الإيمان، يقول رسول الله ﷺ:

«ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان:

١ - أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

٢ - وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله.

٣ - وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار.

ولقد سمع الناس كثيرًا عن عاطفة الحب الإلهي عند السيدة رابعة العدوية رضى الله عنها، وسمعوا عن حب الإمام ابن الفارض، والإمام البرعي. ونحب أن نضع بجوار هؤلاء شخصية نعتبرها نموذجًا للصوفية في صلتهم بالله سبحانه: إنها شخصية الإمام الشبلي!

وإذا كان الجرم الفقير من الشعب الإسلامي قد أخذ فكرة عن الحب عند بعض الصوفية، فإنه لم تتح له الفرصة لأخذ فكرة مستفيضة عن الحب عند الشبلي ولكن المؤرخين لحياة أبي بكر الشبلي يتحدثون عن حبه العميق وهيامه المستمر. ومنهم مثلاً صاحب الحلية الذي يقول عنه:

ومنهم المجتذب الوهان، والمستلب السكران، الوارد العطشان، اجتذب عن الكدور والأغيار، واستلب إلى الحضور والأنوار، وسقى بالدنان، وارتنى مملأ ريان: أبو بكر الشهير بالشبلي.

وسيرى القارئ أن أسباب المحبة عنده، وأن ثمارها، وأن تصرفها وكل ما يحيط بها منغمس في جو من الاتباع لرسول الله ﷺ، وشعار من التزام الشريعة الغراء، وهكذا يتخذ الصوفية الشريعة والاقتداء برسول الله ﷺ أساسًا لكل تصرفاتهم.

أما عن أسباب المحبة: فإنها فيما يرى الشبلي نتيجة «الهمة»!

والهمة عند الصوفية هي التسمير والجد في العبادة.

ويقول الشبلي:

«إن من ملَّت همَّته ضعفت محبَّته»

سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: يكون الولي مشحونا بالعلوم والمعارف والحقائق لديه مشهودة، حتى إذا أعطى العبارة كان كالإذن له من الله في الكلام، ويجب أن تفهم أن من أذن له في التعبير بهيئت (١٤٠) في مسامع الخلق عبارته، وحليت لديهم إشارته.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة، وكلام الذى لم يؤذن له يخرج مكسوف الأنوار، حتى إن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة فتقبل من أحدهما وترد على الآخر.

ثم اعلم أن مبنى أمر الولي على الاكتفاء بالله، والقناعة بعلمه، والاعتناء بشهوده، قال الله سبحانه:

﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ (١٤١).
وقال سبحانه: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ (١٤٢).

= فمع الهمة إذن صعوداً وهبوطاً تكون المحبة صعوداً وهبوطاً.

ولقد جلس عنده جمع من المريدين فوجدهم غفلة لا يذكرون، فقال في حزن:

كفى حزناً بالواله الصب أن يرى منازل من يهوى معطلة قفرا
وسئل مرة عن أعجب شيء فقال:

«من عرف الله ثم عصاه»!

ولا يسر المحب شيء أكثر من موافقة من يحب.

قال أبو القاسم عبدالله بن علي البصري: قال رجل للشبلي:

إلى ماذا تستريح قلوب المشتاقين؟ قال:

«إلى سرور من اشتاقوا إليه وموافقته» وأنشد:

أُسْرُ بِمَهْلِكِي فِيهِ لِأَنِّي أُسْرُ بِمَا يَسْرُ الْإِلْفُ جِدَا
وَلَوْ سَلَّتْ عِظَامِي عَنْ بِلَاهَا لِأَنكَرْتَ الْيَلَّ وَسَمِعْتَ جَدَا
وَلَوْ أَخْرَجْتَ مِنْ سَقَمِي لِنَادَى هَيْبُ الشُّوقِ بِي يَسْأَلُهُ رَدَا

ولابد للمحب من الأدب الكامل في القول فضلاً عن السلوك ويقول الشبلي:

«الانسياط مع الحق بالقول ترك أدب».

والمحبة رقة للمحبيب، وإذا سألت عن الفرق بين رقة العبودية ورقة المحبة فإن أحمد بن محمد بن عمران قال:

سمعت الشبلي - وسئل - فقيل: ما الفرق بين رقة العبودية ورقة المحبة؟ فقال: كم بين عبد إذا أعتق صار حراً، وعبد كلما أعتق ازداد رقاً.

ثم أنشأ يقول:

لتحشرنَّ عظامي بعد إذ بليت يوم الحساب وفيها حكم علق

وقد يسأل إنسان عن تعريف المحبة عند الشبلي: ما هي؟

والجواب: إنه يقول:

«المحبة اتباع أوامر المحبوب، وتجنب نواهيه، ومع ذلك فيجب الصدق والإخلاص، وكنان الحال مع بذل الجهد في المجاهدة،

ثم بعد ذلك لا توصل للمحبيب إلا بفضله ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾.

(١٤٠) بهيت: أي حسنت وراقت.

(١٤٢) الزمر: ٣٦.

(١٤١) الطلاق: ٣.

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ (١٤٣).

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١٤٤)؟ فمبنى أمرهم في بداياتهم على الفرار من الخلق والانفراد بالملك الحق وإخفاء الأعمال وكنم الأحوال، تحقيقاً لفنائهم، وتبئيتهم، وزهدهم، وعملاً على سلامة قلوبهم، وحياً في إخلاص أعمالهم لسيدهم، حتى إذا تمكن اليقين، وأيدوا بالرسوخ والتمكين، وتحققوا بحقيقة الفناء، وردوا إلى وجود البقاء، فهناك إن شاء الحق أظهرهم، وإن شاء سترهم، وإن شاء أظهرهم هادين لعباده إليه، وإن شاء سترهم فاقطعهم عن كل شيء إليه، وظهور الولي ليس بإرادته لنفسه، ولكن بإرادة الله له، بل مطلبه إن كان له مطلب الخفاء لا الجلاء كما قدمناه، فلما لم يكن الظهور مطلبهم، وأراد الله سبحانه إظهارهم فأظهرهم، تولاهم في ذلك بتأييده وواردات مزیده لقوله ﷺ: يا عبد الرحمن بن سمره لا تطلب الإمارة فإنك إن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها. (١٤٥)

ومن تحقق منهم بالعبودية لله لم يطلب ظهوراً ولا خفاء، بل إرادته وقف على اختيار سيده له.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: من أحب الظهور فهو عبد الظهور، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء، ومن كان عبداً لله فسواء عليه أظهره أو أخفاه.

ولنختم هذه المقدمة بذكر كرامات أولياء الله جوازا ووقوعا وأقسام ذلك على سبيل الاختصار، وكون هذا قد سبق إلى الكلام عليه بالإيعاب غيرنا قد أقام لنا الاعتذار، لكننا ننبه على نكت (١٤٦) مفيدة لأولى الألباب، ويكشف عن وجه حسنها ما أسدل عليه من نقاب، ليكون ذلك مهيباً لك لقبول ما نورده عن هذه الطائفة من الكرامات، وما نسنده إليهم من بواهر الآيات إن شاء الله تعالى.